أدباء العرب

محمود المسعدي وكتابه

"حدث أبو هريرة قال..."

تأليف:

أحمد الطويلي



دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع - تونس

أدباء العرب

محمود المسعدي وكتابه

"حدث أبو هريرة قال..."

تأليف :
أحمد الطويلي

دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع
تونس

« الحياة كون واستحالة ومأساة ، فاذا هي ارتدت ظاهرة وقــرارا ورضى ، فهـــي الخسران ولعنـــة على الزائفين .... وان كل كيان لجهد وكسب منحوت » .

محمود المسعدي

من مقدمة « حدث ابو هريرة قال ... »

المسعدي في عصره

1911 ـ (28 جانفي) ولادة محمود المسعدي بقرية تازركة بالوطن القبلي بتونس .

ـ (نوفمبر)اصطدامات دامية بين الشعب والجالية الاروبية بتونس .

1914 ـ اندلاع الحرب العالمية الاولى الى سنة 1918 .

1922 ـ (5 افريل) مظاهرات شعبية صاخبة ضد السلطة الاستعمارية بتونس .

ـ انتقال المسعدي من الكتاب الى المدرسة الابتدائية .

1924 ـ (اكتوبر) تاسيس نقابات تونسية مستقلة : جامعة عموم العملة التونسيين .

1925 ـ (نوفمبر) نفي محمد علي الحامي زعيم النقابيين .

ـ اجراءات تعسفية ضد الصحافة والحريات العامة .

1930 ـ المؤتمر الافخارستي بتونس وهو الحملة الصليبية الاخيرة .

ـ مشاركة المسعدي في مظاهرات الاحتجاج على هذا المؤتمر في صف تلامذة المدرسة الصادقية .

1931 ـ احتفال بخمسينية بسط الحماية الفرنسية على تونس .

1932 ـ حصول المسعدي على الجزء الاول من الباكلوريا بالمعهد الصادقي .

ـ ابتداء حوادث التجنيس .

1933 ـ حصول المسعدي على الجزء الثاني من الباكالوريا من معهد كارنو الفرنسي .

1933 ـ 1936 ـ التحاق المسعدي بجامعة الصربون بفرنسا ، الى سنة 1936 .

1934 ـ (مارس) مؤتمر قصر هلال ، وتاسيس الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد .

ـ (3 سبتمبر) ايقاف الزعماء ومنع كل نشاط سياسي .

1936 ـ تحصيل المسعدي على الاجازة في الاداب العربية من الجامعة الفرنسية .

ـ المسعدي يدرّس بمعهد كارنو بتونس .

1938 ـ المسعدي يدرس بالصادقية .

ـ ابتداء تاليف « حدث ابوهريرة قال .. »

ـ (9افريل) الشعب التونسي يتظاهر ضد الاستعمار .

1938 ـ ابتداء الحرب العالمية الثانية الى سنة 1945 .

ـ تحصيل المسعدي على شهادة الدراسات العليا في اللغة والاداب العربية من جامعة باريس برسالة عن « الايقاع في السجع العربي » .

1942 ـ اعتلاء المنصف باي عرش تونس .

ـ (9 نوفمبر) ـ انتصاب جيوش المحور بتونس الى 13 ماي 1943 .

1944 ـ 1947 ـ رئاسة المسعدي لتحرير مجلة المباحث الادبية التي سينشر فيها بعض احاديث « حدث ابوهريرة قال .. » خلال هذه السنة وبعض فصول « مولد النسيان » خلال سنة 1945 ، وقصة السندباد والطهارة سنة 1947 .

1946 ـ **20 جانفي : تأسيس الاتحاد العام التونسي للشغل برئاسة فرحات حشاد.**

ـ انتهاء الحرب العالمية الثانية .

1947 ـ رجوع المسعدي الى الدراسة العليا بباريس ونجاحه في مناظرة التبريز في اللغة والآداب العربية من جامعة الصربون.

1948 ـ انخراط المسعدي في منظمة الاتحاد العام التونسي للشغل ثم انتخابه أمينا عاما مساعدا للاتحاد ورئيسا للجامعة القومية للتعليم المنضوية في صلبها كل نقابات التعليم الابتدائي والتعليم الثانوي والتعليم الفني (التقني).

1952 ـ (18 جانفي) ـ ابعاد الزعيم الحبيب بورقيبة الى طبرقة ثم رمادة ثم جزيرة جالطة .

ـ ابتداء الثورة المسلحة ، وحملات القمع الفرنسي والارهاب خاصة بالوطن القبلي .

ـ (5 ديسمبر) : اغتيال الزعيم النقابي فرحات حشاد واضطلاع المسعدي حالا بمسؤولية قيادة الاتحاد العام التونسي للشغل خلفا له بوصفه الامين العام المساعد للاتحاد .

ـ (6 ديسمبر) : الاضراب العام بالبلاد التونسية الذي قررته القيادة الجديدة للاتحاد العام التونسي للشغل والديوان السياسي السري للحزب الدستوري التونسي .

ـ ابعاد المسعدي ورفاقه اعضاء الهيئة الادارية للاتحاد العام التونسي للشغل الى رمادة مع اخوانهم في الديوان السياسي السري للحزب الحر الدستوري التونسي باقصى الجنوب التونسي ثم الى تطاوين فقبلي تحت الرقابة العسكرية .

1953 ـ (جوان) : اطلاق سراح المسعدي ورفاقه .

1954 ـ مشاركته في الوفد التونسي للمفاوضات مع فرنسا بشان ضبط اتفاقيات الاستقلال الداخلي .

ـ (31 جويلية) : اعلان الاستقلال الداخلي التونسي.

1955 ـ تعيين المسعدي رئيس مصلحة التعليم الثانوي بوزارة التربية القومية .

ـ نشر رواية « السد » وهي رواية في ثمانية مناظر عن شركة النشر لشمال افريقيا ، رسوم حاتم المكي ، مع مقدمتين تحليليتين للرواية بقلمي المحجوب بن ميلاد والشاذلي القليبي .

1956 (20 مارس) : توقيع اتفاقية الاستقلال الكامل والغاء نظام الحماية .

(25 مارس) : انتخاب النواب اعضاء المجلس القومي التاسيسي .

(14 افريل) : الرئيس بورقيبة يشكل اول حكومة في فترة الاستقلال .

(18 افريل) : تونسة الامن الوطني .

(21 جوان) : الغاء نظام « القيادة » وابداله بنظام الولاة .

(3 اوت) : تونسة القضاء والغاء المجالس الشرعية .

(13 اوت) : نشر مجلة الاحوال الشخصية وتكوين الاتحاد القومي النسائي التونسي .

(12 نوفمبر) : قبول تونس كعضو في منظمة الامم المتحدة .

1957 ـ (21 مارس) : القوات الفرنسية تغادر ثكنة القصبة بعد 75 سنة من الاحتلال .

ـ (25 جويلية) : الغاء النظام الملكي واعلان الجمهورية وتعيين الزعيم الحبيب بورقيبة اول رئيس لها .

ـ (29 جويلية) : تكوين اول حكومة جمهورية .

1958 : المسعدي متفقد عام للتعليم الثانوي ثم كاتب دولة للتربية القومية الى سنة 1968 ، حيث وضع اول مخطط للتعليم وانشأ الجامعة التونسية .

ـ 25 طائرة فرنسية تغير على بلدة ساقية سيدي يوسف وتدمر ربع البلدة : 68 قتيلا و78 جريحا .

1959 : المسعدي نائب بمجلس الامة وعضو بالديوان السياسي .

1963 : (3 اكتوبر) : جلاء آخر القوات الفرنسية عن بنزرت .

1964 ـ (12 ماي) : تاميم الاراضي التي كانت تحت تصرف الاجانب .

1965 : وفاة والد المسعدي الحاج عبد الرحمن **رحمهما الله.**

1969 : تعيين المسعدي وزيرا للدولة الى جوان 1970 .

ـ (2 سبتمبر) : نهاية سياسة تعميم التعاضد .

1973 : نشر رواية « حدث ابو هريرة قال » كاملة .

1974 ـ **(ديسمبر)** : المسعدي يعين وزيرا للشؤون الثقافية الى نوفمبر 1976 .

ـ نشر « مولد النسيان » .

ـ انتخاب المسعدي عضوا بالمجلس التنفيذي للمنظمة العالمية للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) .

1979 ـ إعادة انتخاب المسعدي للمرة الخامسة عضوا بمجلس الامة .

1988 ـ وفاة والدته حورية ابنة احمد المسعدي رحمها الله .

ـ نشر كتاب « تاصيلا لكيان » وهو مجموعة ابحاثه ومقالاته ومحاضراته في الادب والفلسفة والثقافة عن مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع .

ـ نيله لجائزة الدولة التقديرية في الآداب والعلوم لسنة 1980 .

ـ تجديد انتخابه عضوا بالمجلس التنفيذي لليونسكو .

1978 ـ 1981 ـ قيام اليونسكو بترجمة رواية « السد » للفرنسية وبنشرها بمقدمة من المستشرق« جاك بيرك » عن دار النشر ،نعمان ـ شير بروك ـ بالكندا » ضمن « سلسلة اليونسكو للمؤلفات النموذجية ـ قسم الكتاب العرب المعاصرين » .

1981 ـ إعادة انتخاب المسعدي للمرة السادسة عضوا بمجلس النواب **(1 نوفمبر)**

ـ **(9 نوفمبر)** انتخابه بالاجماع رئيسا لمجلس النواب .

حياته

ولد محمود المسعدي في 28 جانفي 1911 بقرية تازركة بالوطن القبلي ونشأ بها ، وكان والده الحاج عبد الرحمان المسعدي تخرج من جامع الزيتونة بشهادة التطويع فكان امام الصلوات الخمس وخطيب الجمعة بالقرية ومدرسا دروسا ليلية في الارشاد الديني وكان عدلا موثقا ، تأثر به الصبي محمود شديد التأثر، قال عنه في إهداء كتابه « حدث ابوهريرة قال .. » : « هوالذي رتلت معه صباي على انغام القرآن وترجيع الحديث، مما لم اكن افهمه طفلاً ولكني صغت من ايقاعه منذ الصغر لحن حياة ، ورباني على أن الوجود الكريم مغامرة طهارة ، جزاؤها طمانينة النفس الراضية في عالم اسمى فاسمى ، وفي اثناء ذلك كله علمني بايمانه سبيل ايماني » .

* اعتمدت في هذا الفصل خاصة على حياة المسعدي كما استذكر بعض اطوارها خلال لقاءات مؤانسة جمعتني به . وقد تفضل صاحب « حدث ابوهريرة قال .. » بأن حدثني أحاديث جمعت الى الافادة المتعة،تمكنت بفضلها من ان اعطي صورة ارجو ان تختلف عن الصورة المعهودة التي نجدها عنه غالبا ، وبهذه المناسبة أجدد شكري الى صاحب « السد » و « حدث أبو هريرة قال » « ومولد النسيان » و « تاصيلا لكيان »

كان الجو الذي عاش فيه الى جانب والده وهو طفل الى سن المراهقة قبل سن الحادية عشرة جوا دينيا ، فقد علمه والده الصلاة والمواظبة عليها خاصة على صلاة الجمعة منذ السنة السابعة من عمره ولا غرابة ان يستمد عنوان كتاب « حدث أبوهريرة قال ... » مباشرة مما كان يسمع من خطب الجمعة التي كثيرا ما ترد فيها الاحاديث النبوية باسناد ابي هريرة .فانغام القران وترجيع الحديث مما لم يكن يفهمه صبيا هو الجو الذي كان يعيش فيه ، وان اهداء كتاب « حدث ابوهريرة قال .. » والعنوان كذلك يتعلقان شديد التعلق بهذه الذكريات الحميمة والانطباع العاطفي والتأثر النغمي المرتبطين بهذا الجو الديني الاسلامي الصرف فنجد احاديث هذا الكتاب منتزعة انتزاعا مباشرا من جو الخطب الجمعية والجو الروحاني العام بما فيه من الفيات وقصائد ينشدها اطفال الكتاب بمناسبة احياء ليالي المولد وما كان يرتل من الحان من الآيات القرآنية بمناسبة دورة الانطلاق من الجامع والذهاب الى بيت الامام لتبادل التهاني بالمعايدة والقراءة على الاموات.

هذا الجو هو الذي عاشه محمود ألمسعدي وهو طفل وهو الذي « رتل صباه على انغامه » حتى صار شابا وهو الذي يفسر لنا الجانب الوجداني الذي يلمس فيما كتبه والجانب الديني الذي ينعت أحيانا بالجانب الصوفي وهو الجانب الروحاني الذي ليس هو التزمت والتعصب والانغلاق ولا التعلق بالفروع والاشكال ومظاهر الشعائر . وستتغذى هذه الروحانية وتتقوى بعناصر التكوين الثقافي بالمعنى الفكري والفلسفي العام وتفضي الى معالجة مشاكل المعرفة على أسس دينية وجدانية وروحانية .

وعندما راح الشاب محمود الى مرحله التعليم الثانوي ثم العالي بقي السؤال التالي يلازمه : اي سبيل أصح يمكن من الوصول الى الحقيقة ؟! : الايمان الروحاني أو اليقين بالمعنى المنطقي الكرتزياني ؟ كان يتساءل : اين الحق ؟ . أفي جانب الطرق العلمية والكرتزيانية المنطقية ؟ ام في جانب ذلك النوع من الحقيقة الذي يتجاوز العقل والعقلانية وإمكانيات الكرتزيانية والمنطق ؟ ويرتبط بهذا السؤال المزدوج مشكل التصوف او الحدس الروحي الذي تحدث عنه الغزالي وتلك الروح التصوفية التي طغت في نفس الحلاج الى درجة ان صاح عندما شعر بانه بلغ الحقيقة بملء إيمانه : « انا الحق ! انا الله ! » وذلك من غير سبيل المنطق ولا ممارسة المناسك وسائر الشعائر الدينية ! .. ونجد صدى تلك الصيحة في « حدث ابوهريرة قال . » اذ يقتفي هذا البطل خطى الحلاج في البحث عن الحق ! ..

وعندما كان محمود يرجع الى القرية من تونس خلال فصل الصيف ، زمن العطلة ، كان يشعر بوحدة موحشة وتضيق عليه الدنيا باهلها ويحس بانه محكوم عليه بالعزلة والانفراد ، وكان يروح يتمشى وحده على شاطىء البحر خاصة بالليل خلال الليالي المقمرة التي كان مولعا بها ، ونراه يشير اليها احيانا بتآليفه (1) .

وكان الى ذلك يتردد الى مقبرة القرية القريبة منها ليزور قبر احد اخوته توفي صغيرا بمرض التيفوييد وكان له عطف عليه ، فترتسم في ذهنه صورة القبور البيضاء ويتكون عنده شبه شعور غريب بما بين لا نهاية البحر ولا نهاية الموت من صلة وثيقة غريبة .

---

(1) جاءت مثلا هذه الجملة في « مولد النسيان » ، ص 115 ، ط الاولى ، « وبقيت الليلة قمراء ، وضاحة الظلمة بيضاء.. » وهي اخر جملة في الرواية .

تخرج محمود المسعدي من الكتاب وراح الى المدرسة الابتدائية حيث تعلم اللغة العربية والفرنسية ثم صار تلميذا في المدرسة الصادقية يتلقى هناك العربية على ايدي مشائخ من جامع الزيتونة يدرسون بها وياخذ عنهم النحو والبلاغة والتوحيد والفقه .

ومن العناصر الاساسية في تكوينه الفكري والثقافي بما كان يتلقاه عن اساتذة فرنسيين من تحليل للمعاني وضبط للافكار خلال دراسة الأدب الفرنسي ونصوص المفكرين الفرنسيين فأخذ الصبي يكتشف اسرار النفس البشرية والاحساس الانساني المرهف والخيال الشعري العريض عن طريق الشعراء والادباء الفرنسيين منذ عهد دوبلاي Du Bellay ورونصار Ronsard إلى الدراسين Racine وكرناي Corneille ففولتير Voltaire وروسو Rousseau الى شاتوبريان Chateaubriand وفيكتور هوقو Victor Hugo ونذكر من هؤلاء الاساتذة الفرنسيين الاستاذ « لان » فقد كان يفسر لتلامذته نصوصا من الادب الفرنسي ويعلق عليها تعاليق ضافية ملاحظا كيف أن الكاتب العبقري يستطيع ان يبعث في الخيال صورا رائعة بكلمة واحدة ، وكيف أن الشاعر او الاديب يبعث في جملة او جملتين المنظر كاملا بجزئية بسيطة واحدة ومن بين القصائد التي اثرت في المسعدي تأثيرا كبيرا نذكر قصيدة « مصرع الذئب » لفيني وقد ترجمها الأديب الشاعر الهادي العبيدي ونشرت في مجلة « المباحث » (انظر العدد 2 من المباحث ، السلسلة الجديدة) .

ولعل ذلك بطلب منه حين كان رئيس تحريرها وهذا نصها :

هذا المساء يلف غابات الصنوبر بالسواد
والبدر مثل الجمرة الحمراء تبدو في اتقاد .
والسحب تركض فوقه ركض العتاق من الجياد
تبدو كمثل دخان محرقة تلوح على النجاد
وأنا وجمع من رفاق صائدين
قمنا نجول بمسرح الغاب الحزين

* * *

الذئب أقبل عاويا متسللا بين الشجر
متثاقلا في خطوه والعين تقدح بالشرر
اقعي وقد بسط الاظافر مرهفات كالابر
لما اندفعنا نحوه وكأننا السيل انحدر
سدت عليه جميع أبواب الخلاص
ورای الهلاك فلا هروب ولا مناص

* * *

فانقض يغرس نابه في لبة الكلب الجري
قد اطبق الفكين مدفوعا بغيظ مسعر
لم يخش من رمي عليه من البنادق ممطر
وحناجر غاصت باضلعه فلم يتقهقر
بالرغم عن ذا امسك الكلب التعس
حتى رآه ـ ممددا ـ لفظ النفس

* * *

اذاك وهو مستمر بحرابنا فوق النبات
القى علينا نظرة فيها التجلد والثبات
لحس الدماوبدا كمضطجع ثمدد للسبات
وبدون أي تاوه او أنة اهوى ومات
فاثار في القلب الحزين شجونه
وفهمت من نظراته مكنونه

* * *

ناجيت نفسي قائلا في حرقة : يا للخيال !
بالرغم عما يغمر الانسان من معنى الجلال
اني لامقت ضعفه وهوانه والانحلال
قد ضل عن كنه الحياة وسرها وعن المآل
يا لو تدبر حالتيه مفكرا
لرای الصمود احق فيها واجدرا

* * *

انـي فهمتك جيدا يا ايها الوحش البطل
ووعيت من نظراتك الدرس الحكيم المرتجل
قد قلت لي : اسم كما سموت وكن صبورا لايمل
مثلي انا في نشاتي بالغاب حرا انتقل
خل التأوه والتضرع والبكا
ان المحقر والجبان من اشتكى

* * *

قم في الحياة بدورك المضني الثقيل المتعب
ببسالة الشهم الجليد الحازم الحر الابي
واسلك سبيلا شاءه حكم القضا المتغلب
فاذا فعلت بلغت في العلياء اشرف منصب
والق المنايا والتالم والعنا
في صمت ممتثلا لها مثلي أنا

كان الاستاذ « لان » يقول لتلامذته : « ما أعرف أدبا اعظم من الادب الفرنسي » ويقول لهم أيضا : « من يتعلم الادب اللفرنسي يستطيع أن يكون ذاتيته وشخصيته ويعتز بهما » .

وكان الاساتذة الفرنسيون الاخـرون يرددون لتلامذتهم التونسيين مثل هذا الكلام قائلين : « شعبكم متخلف ، انتم ليست لكم حضارة . ونحن جئناكم هنا لنجيئكم بالمدنية » .

فكان هذا الكلام يؤثر في التلامذة النجباء خاصةويجعلهم يعيشون في غصة شديدة يتساءلون في حيرة وألم : « اذا صح كلام هؤلاء فنحن أنن لسنا سوى صفر ! » . ١٠

ويلجأ التلامذة الى اتباع الدروس لدى المشائخ التونسيين الاجلاء ، يحاولون ان يتعرفوا على ما كانت عليه البلاد العربية والاسلامية من حضارة ومجد وتألق ثقافي ويطلعوا على تراثهم المجيد ولا يزال المسعدي يذكر بالاجلال والعرفان من هؤلاء المشائخ

الشيخ محمد بلقاضي والشيخين الطاهر بن عاشور.وعبد العزيز جعيط وكانوا من ابرز اساتذة الزيتونة .

ومن هنا يتكون أساسا الاتجاه الجوهري لحياة المسعدي الفكرية والادبية بمختلف اوجه النشاط لتاصيل كيانه واثباته كاحد افراد مجموعة بشرية تنتمي الى عنصر معين من التاريخ الانساني وجانب من الحضارة العربية الاسلامية المشرقة فنراه يذهب لاكتشاف ابي العتاهية والحلاج والمتنبي والجاحظ وسائر اقطاب الفكر العربي ثم استطاع ان يثبت ان في العالم العربي الاسلامي يوجد من استطاع ان يعلم الانسانية قاطبة ويلقنها دروسا نيرة في الحضارة والعلم والفلسفة والادب !!

وعندما أصبح المسعدي مدرسا بالصادقية كان يرتكز تدريسه الأدب لتلامذته العديدين - نذكر من بينهم مثلا الاستاذ المفكر محمد مزالي. على أن الانسان يمكن أن يتكون عن طريق الشعراء والمفكرين العرب، ويمكن له الاستغناء عن الأدباء الفرنسيين والاكتفاء بالاخذ عن اعلام الادب العربي ما يكون الفكر والوجدان والشعور وما يبعث على التفكير في مشاكل الوجود الجوهرية. ويلاحظ لهم أن في آثار الجاحظ والمعري وغيرهما من أعلام العرب مادة ثرية وكنوزا من المغامرات الانسانية العميقة لا تفنى ولا تنضب.

كان المسعدي يحاول خلال هذه الفترة من حياته أن ترجع في انسانيتكم وتدربوا على الكيان المسؤول . فادبنا مساو للادب الانكليزي والالماني ، وان ادباء الادب العربي لانداد لفحول الاداب العالمية الاخرى » .

كان المسعدي يحاول خلال هذه الفترة من حياته أن تررع في نفوس تلامذته الثقة في انسانية الانسان العربي المسلم وكان يبحث عن قيمة ما به تثبت منزلته ويستنتج ان الانسان العربي ليس الكائن الدون بل هو من الكائنات التي تستحق الوجود

والاحترام والتكريم وتحمل المسؤولية ونجد في مقدمة « تاصيلا لكيان » فقرة تكشف لنا عن دأب المسعدي في البحث عن الجذور الجماعية للكيان ومقدار تحقيق الذات وخاصة الاتفاق مع النفس يقول :

« هذه ورقات منتشلة من أضعاف ماض لا يزال حيا ، صادرة عن وحدة في الاستفهام ونسق في محاور السؤال ووضح اتجاه في التفكير ، كتبت صفحاتها على وجه الدهر مختلفات .. تمحيصا للراي والتعبير ، وحفاظا لعهد الفكر جلاله والقلم حريته والوجود مسؤوليته ، في فترات توالت وتباعدت في الزمن العديد ، وتقاطعت متصلة في امتداد سؤال واحد لا يزال يند جوابه : من انا ؟ممن انا ؟ واين السبيل مني الي اومني اليك ، فمني الى الكون او الى ما وراء الباب الذي وراء العدم .. ؟ » (1) .

وتتنزل جميع آثار المسعدي في منزلة التساؤل عن مدى اضطلاع الفرد الواعي بدوره في المجتمع وعن وجه قيامه بواجبه . وبكلمة اخرى عن المدى الحقيقي لابعاد الوجود الذاتي الفردي وارتباطه بالابعاد الاجتماعية اذ ان في التخلص من المسؤولية يكمن الضيق والنقص والبتر ؟! وترتكز فلسفة المسعدي خاصة على ان الوجود لا يكون اتم واكمل واروع الا اذا اتسع للحياة باكملها ، واحتواها واتحد مع وجود الغير فيكون حينئذ الانطلاق والاتساع والانفجار والتحرر .

وقد استطاع المسعدي ان يتناول هذه الاغراض بتعمق خاصة في روايته « حدث ابوهريرة قال .. » .

فنرى ابا هريرة يريد ان يخرج الناس من تعاستهم ووضعيتهم المنحطة وهوانهم فيلاقي الكثير من المعاناة والحيرة والقلق .

وفي مسرحية « السد » نجد المسعدي يعالج هذه القضية وهي هل يكون الاضطلاع بالمسؤولية الوجودية بالفكر فقط ام ايضا

---

(1) انظر آخر الغلاف من « تأصيلا لكيان » .

بالعمل ؟ وقد اراد غيلان ان يقوم بتجربة وجودية متشعبة النواحي يلتزم فيها بالعمل والكد ، ويأخذ المجتمع على اكتافه ويتحمل المسؤولية وحده ولكنه يفشل لتعقد هذه المسؤولية واكتناف غيلان بظروف خاصة .

ويمكن ربط هذه المعاني بما كان يشعر به المسعدي ازاء شعبه المقهور من واجبات ، فقد كان شعبه يقاسي جسديا في مستوى حياته اليومية بالاضافة الى ما يقاسيه من الاستعمار : فكان لا يجد قوت يومه او ما يسد به الرمق ولا ما يستتر به العراء ولا ما يداوي به المرض . ومن بين الكتب التي اثرت فيه كتاب « جوليان بندا » وعنوانه « خيانة المثقفين » La trahison des clercs وقد آثار هذا الكتاب قضية خيانة طبقة المثقفين بالنسبة الى المجتمع ، حيث يكون المثقف راضيا عن نفسه ، منقطعا عن الشعب فيبقى هذا يتخبط في التعاسة والبؤس ومحاولات ماساوية للدفاع بنفسه عن نفسه !!

لذلك كان المسعدي داعيا بصيرا بمسؤولية المثقفين فاخذ يندد بالعمى الذي يضيع الكيان ، ويضلل الوجدان ويدعو للتبصر واستعمال الفكر .

يقول في مقدمة « مولد النسيان » : « ان في وجود اعمى ـ اي وجود ـ ضياع الكيان ، وضلالا اشقى من شقاء الشيطان » .

ونراه يشير ايضا الى هذه الفكرة في مقدمة « حدث ابو هريرة قال » منذ سنة 1938 مستشهدا بقولة نيتشه :

« اذا ذهب صدقي فقد عميت ، فاذا اردت المعرفة فقد اردت الصدق ، اعني الشدة والتضييق على نفسي والقساوة لا تلين » .

والمسعدي يريد ان يحيي نار شعبه يقول في كتابه « حدث ابوهريرة قال .. » في المقدمة باحثا عن الاصداء التي ترجع حديثه وتحييه :

« ان هذا الكتاب لكالصوت اوكالصيحة في واد به حاجة الى ما يردد صداه ويسري فيه خلجة الحياة ، فقد كتبت اكثره في الليل

جعلته دعائي للصباح واستوفيته ولما يتنفس الفجر .. هو دعوة الى احياء نارك ، فان لم يحيها من رماد ! فقد مات وبطل همك منه » .

ونلاحظ في هذا السياق ان كتاب « حدث ابوهريرة قال .. » ليس غير نغم عربي اصيل مستوحى من الخطب الجمعية لكنه في نفس الوقت مقابلة موسيقية شعرية لكتــاب « هــكذا حدث زرادشت » لنيتشه ، يضمنه اغراضه ويقيم لنا الدليل فيه على ان المشاكل الوجودية والتساؤلات الجوهرية التي هي شان كل ادب اصيل يمكن ان تصاغ في لحن عربي اسلامي لا يقل شانا عن الالحان السرمدية الخالدة :



رواية « حدث ابو هريرة قال .. »
توق وشوق

تدخل رواية « حدث ابوهريرة قال .. » في اهتمامات المسعدي بالبحث عن الانسان واثبات ان هذا الانسان لا يقل قيمة عن غيره في الغرب وانه قادر على بناء كيانه على دعائم فلسفية جوهرية متينة . فهي بمثابة الرد على ادعاءات تقول بان لا قيمة حضارية للانسان العربي . فابو هريرة الشخصية العربية اللامعة ، المتجذر في التاريخ الرامز الى قيم عربية اسلامية سامية لم يمت بل لا يزال حيا بيننا ، هو رمز وجودنا وتحقيق لذواتنا وبرهان على ان الحضارة العربية الاسلامية ما زالت قائمة وصامدة امام جميع التحديات .

« اكون او لا اكون » تلك هي قضية هذا الكتاب الجوهرية .

فالمسعدي – في هذا الكتاب – يفسر علة وجود الانسان العربي ويوضح غاية حياته : توق الى المطلق وتحد لاخطار الحياة ، وممارسة متواصلة لمغامرات الوجود ، وبحث مستمر عن الحقيقة .

ان دارس هذه الرواية يلمس شعورا حادا بالوجود وبحثا متواصلا عن الذات ودأبا مستمرا لاكتشاف الحقيقة في نصاعتها واشراقها . لكن ارادة ابي هريرة تصطدم بحواجز كثيفة متنوعة ، وتتضارب مع سدود مادية وموانع نفسانية وفلسفية مختلفة ، فابو هريرة ثائر على وضعه ، قلق من وجوده ، حائر في طريقه .

وتكمن قيمة هذه الرواية الادبية في ابعادها الفلسفية وخاصة في هذا الوعي العميق بالوجود وارادة اثبات مصير انساني يكون البطل فيه هو المؤصل للكيان والمتغلب على متناقضات الحياة والمصر على هزم الموت والخيبة والشر .

فابوهريرة في صراع متواصل مع نفسه اولا ثم مع قوى اخرى غيبية اقوى منه لذلك فهو في حيرة دائمة وفي غصة من امره يريد ان يجد مبررات للحياة وان يحيا حياة حقيقية ذات معنى وقيمة . ويرمي الى التخفيف من الثقل الوجودي ومن الغربة النفسية التي تحطمه فلا يتحطم .

ان المسعدي كتب هذه الرواية في حالة وعي انساني دقيق بوضعيته وظروفه الانسانية التاريخية والبيئوية ومنزلته ككائن فرد يريد ان يعيش مع الجماعة وان يندمج فيها والا كان البتر والعجز والشلل وكان القصور والقصر ، وكانت العزلة القاصمة للظهر فكانت كل اعماله وفلسفته مقترنة دوما بمصلحة الانسان الاعلى ..

وتحتل رواية « حدث ابوهريرة قال .. » مكانة خاصة بين الروايات العربية شكلا ومضمونا فهي اثر فني روائي يرتبط ارتباطا وثيقا بالادب العربي القديم جاءت في اطار عربي صرف (الأشخاص ، السكان ، الزمان .. الخ) وجاءت في قالب اخبار يرويها رواة مختلفون ، وكل حديث من الاحاديث المختلفة المروية تزيدنا معرفة بابي هريرة وتكشف لنا عن اطواره النفسية المختلفة وتطلعنا على افكاره ونزعاته ورغباته ومواقفه من الحياة .

فقد استطاع المؤلف ان يستغل الاساطير العربية استغلالا فنيا ، خاصة اسطورة اساف ونائلة وهي اسطورة الحب الجنسي العاصف الذي يصل الى حد انتهاك العرف ودوس الحرمات في الكعبة الشريفة . ونجد في « حدث ابو هريرة قال .. » تاملات عميقة في واقع الانسان العربي ، واجوبة على اسئلة فلسفية وجودية مصيرية تهم العالم العربي في ظروفه الانسانية حتى

الراهنة وتساؤلات كثيرة عن قضايا جوهرية وظواهر طبيعية قوية جارفة .

وتمثل شخصية « ابي هريرة » من جهة اخرى الانسان الشرقي في رغبته في الخروج من ماديته للسمو بالروح نحو السماء فهو صاحب شوق تروم نفسه ابدا الصعود يتوق إلى ان يفك وثاقه من عالم المادة وهو دائم الشوق الى عالم آخر غير عالمنا المادي المحدود وبعبارة اخرى فهو يريد ان يجدد ظروف الحياة في مجتمعنا ، لذلك فهو ناقم على الوجود وثائر على الحياة وهو دائما يريد ان يعرف ويجرب ويحس بالجديد ، ولذلك ايضا فهو في سفر دائب ورحلات شعورية وروحانية لا تنتهي ، نراه انسانا واعيا لكنه شقي متالم بوعيه ونراه غريبا غربة دائمة . وجودية نفسانية واجتماعية وفلسفية في مجتمع لا يفهم روحه وحتى خلانه فهم لا يفهمونه .

ومن ناحية اخرى نرى ابا هريرة ذلك الانسان الشرقي الفنان المرهف الاحساس الذي يريد ان يضفي على حياته شيئا من الجمال والاحساس بالسعادة وان ينسجم مع الحياة تمثلما تنسجم الانغام في قطعة موسيقية رائعة لكنه يبقى مثل الانسان العربي في ظرف من ظروف حياته العسيرة الماضية حائرا منبنبا ، لاثبات له ولا قرار لا يصل الى اليقين وهو مع ذلك يبقى من صفوة الناس القلائل الذين يحسون بحياتهم تمام الاحساس ويشعرون بكل وعي بوضعيتهم المتازمة ويدركون ان رسالتهم تكمن في التخفيف من الثقل الوجودي والرغبة في تحقيق حياة حقيقية ذات قيمة ومعنى وجودي .

يقول الاستاذ توفيق بكار في المقدمة التي كتبها للطبعة الثانية لرواية « حدث ابو هريرة قال .. » (1) مقارنا هذه الرواية بالروايات العربية الاخرى من حيث التجذر والاقتباس مشيرا الى وضع القصة العربية المعاصرة :

---

(1) ص : 39 _ 40 _ من المقدمة .

« كما بعث المسعدي ابا هريرة اسما ومعنى من اعماق الماضي كذلك بعثه شكلا واسلوبا في تناسق فني متين . فبينا خير كتابنا يكدون قرائحهم لتملك وسائل الرواية الغربية وقد يئسوا من موروثهم القصصي واقتنعوا بان لا معاصرة الا ما صور الغرب ، رفض المسعدي ان ينقطع عن اصوله الثقافية ليغترب في صياغات الغير وأصر في عناد شديد ــ وكان الوحيد ــ الا يتقدم في العصر الا مستمرا مع ذاتيته الحضارية . ولا يؤسفه شيء كأن يرى الادب العربي الحديث في جل مدارسه صورة هجينة من الآداب الاروبية فلا يزال يلح على واجب الترفع عن نلة الحاكي الى عزة المبتكر ويقينه ان التجذر في التراب هو الكفيل وحده بتمكين العرب من مشاركة الأمم الأخرى في الابداع ، ابداع قيم الفكر واشكال الفن وكل ما كتب وابو هريرة بالخصوص ، رهان كبير على ذلك . عاد الى اعماق التراث فاستمد منه اعرق اشكال السرد عند العرب : الحديث او الخبر لا ليقلده بروح سلفية عقيم بل ليعيد اختراعه بقوة الذهن الحديث .

فخلافا لما وردت عليه الاحاديث في التصانيف القديمة من ساذج النظم وزعها المسعدي في قصته حسبما تقتضيه احدث اساليب البناء القصصي . ففصلها على المواقف وحدات متقطعة تتداعى معنويا اكثر مما تتلاحم زمنيا لانه كسر خط الزمان وتصرف فيه طردا وعكسا بما لا تنكره آخر تقنيات « الرواية الجديدة » (والقصة الفت سنة 1939 ولم يتح لها ان تنشر كاملة الا سنة 1973) . وركب تلك الوحدات عروضيا بين طوال وقصار كالاسباب والاوتاد في التفعيلة الخليلية . يستمد النفس السردي في المغامرات الكبرى ويتقارب متسارعا كاللهاث في اشد فترات الحيرة والتازم . فكأن القصة كلها بيت من الشعر يوقعه بحر مستنبط من روح العصر . وتفنن المسعدي في إيراد حوادث القصة بتعديد رواتها . فاتخذ من الاسانيد التقليدية زوايا ينظر منها الى حيلة البطل من بعيد او قريب والخارج والداخل ومن قبل او من

بعد . وتتضارب الاقوال احيانا في الحدث الواحد كما في « حديث الطين » فتختلف اذاك على ابي هريرة الاضواء وتتقاطع حتى تغمض الرؤية عمدا . وتلاعب الكاتب باوقات الرواية كما تلاعب باوقات الاحداث لمزيد التنويع في البناء » .

وينهي الاستاذ بكار مقدمته بهذه الفقرة الدالة (ص 43) :

« ابوهريرة من اقوى نصوص ادبنا المعاصرة كتابة متجذرة في صميم التراث تختبر في جراة عجيبة طاقة أشكاله وأساليبه على اداء روح العصر نموذج من الانشاء الفني المبتكر ورهان كبير على الثقافة العربية وقدرتها على الخلق الأصيل » .



ريحانة النفس

تعج رواية « حدث أبو هريرة قال ... » بمختلف الشخصيات العجيبة ، الغريبة الاطوار ، الزاخرة بالحياة ، تتجاوب تجاويا عميقا حارا مع أبي هريرة .

ومن شخصيات هذه الرواية شخصية ريحانة وهواسم يعني لغويا النبت الفائح الرائحة ، المتضوع الطيب في النفس وهذه المرأة ترمز الى تنعم الحواس باللذة فهي امراة حسناء ، غريب حسنها ، ذات دلال وتغنج وتبرج ، تفتك بالقلوب وتسحر الشباب فتهلكهم بعد ان تعاشرهم واحدا واحدا ، تصل ثم تتمنع ، تجود ثم تبخل ، تقبل ثم تعرض ، تعطف وتصد ، دائمة التهييج للقلوب ، تبذر الجنون وتعصف بالنفوس فتخلفها هائمة حائرة .

فريحانة رمز للمراة الفاتنة اللعوب تبعث الى ضفاف الجنون ، احترق اهلها كلهم بالنار وورثت عنهم حياة اللهو والمجون ، تعربد وتغني وتسكر ، تثير الغرائز وتحرق الارواح بحبها .

هذه المرأة هي مفتاح سر ابي هريرة فهمت عنه كل شيء ، عرفته الى الاعماق وبقيت تتحدث عنه مثلما بقيت تتحدث عن اسطورة أساف ونائلة التي لا يعرفها سواها .

فقد تعرفت على ابي هريرة في مجلس خمر وهو سكران ، لكنه كان اشد الناس صحوا مع ريحانة تقول عنه في « حديث التعارف في الخمر : « وانصب علي فوجدته صاحيا من اشد الرجال ، ثم شدني اليه حتى صرت منه » .

ومع ريحانة عرف ابوهريرة حياة الفتك والخلاعة وصار يغنم زمانه في اللهو والانس : مزامير ومزاهر ، ودفوف وغناء جوار ، وتهالك على الالتذاذ الاقصى . ويأخذ ابوهريرة ريحانة ويحضنها في عناق محموم لكن الشياطين بالمرصاد ، والسماء حبلى بالويلات والعواصف والشرور : الادخنة والانواء والسيول المائية والنيران والرعود لقد اهتاجت الغرائز والتهبت الحواس وتخربت الروح وطغى الشر على العالم وبات الانسان في خطر : الدنيا منكودة ، والسعادة منعدمة ، والراحة مفقودة ، والنفوس مكبوتة تريد الاطمئنان والسعادة النفسية الحقيقية بسعادة الارواح ! .. واذا بأبي هريرة يبكي واصحابه يبكون ويتألمون ، لا صدى الا للبكاء المتردد في جل احاديث « حدث ابوهريرة قال .. » .

واخيرا يقر قرار ابي هريرة على الهجرة والارتحال مثل السندباد يغامر ، وكل سفرة لا تخلو من مخاطر وصعوبات ومهالك! لا ينجو من خطر داهم الا ليتصدى الى خطر اقوى واعتى ، الحياة تكتنفها الاخطار من كل جهة ، وابوهريرة يبحث عن الحقيقة ولا يجدها ، واصحابه يبكون ، وريحانة تبكي متلهفة اليه ، تائقة الى لقائه ومراجعة ايام أنسها ليقطف شبابها من جديد ، فتحلو الحياة وتصير في طعم الرضاب .

تقول ريحانة عنه في حديث الوضع الاول :

« لقد كان دائم التوق الى الشمس ، دائم الخوف من طلوعها ويقول : ان استطعت فاجعل كامل حياتك فجرا » .

ويقول ابوهريرة في حديث الحس : (ص 91) .

« وددت من زمن لو اني علقت بين السماء والارض او اني جلست على قمة جبل وقد طلقته الارض فطار » .

ويحدث ابن مسلمة السعدي عنه قائلا : (ص 197) .

« كان ابوهريرة كالماء يجري لم نقف له في حياته على وقفة قط كالمستعد الى الرحيل لا ينقضي عنه الرحيل » .

ويقول ابوهريرة عن نفسه (ص 202) :

« لم يبق الا ان اطلب ذاتي مطلقا وماهيتي واعرض عن المحمول واللاحق والعارض ، وكذلك ذهبتِ ساعتي في ساعتي وعزمي في عزمي ، كالنور ياكل النور او كالشمع يضيء فيحترق ، حتى لقد ظننت ان الناس لا يجدون لي اثرا اذا مت . والح علي داعي الاوساع الحاحا ، واقتفاني الصفاء ، فلما تطهرت ، اقبلت على البحر » .

لذلك فلا غرابة ان يتنكر ابوهريرة للناس الاغبياء الذين لا يفهمون روحه ، ويسبهم يائسا منهم ، ويطلق ريحانة التي تزرع الامل في القلوب والسعادة في النفوس ويرجع الى الحياة الباطنة ، ويغوص في نفسه ، ويحلل الحياة باحثا عن الكمال الفلسفي مريدا رفع منزلته الانسانية .

وتختم الرواية بهذا الدعاء الحار لروح أبي هريرة من قبل صديقه ابي المدائن : « رحم الله ابا هريرة . لقد كان اعظم من الحياة ، » وكذا الانسان العربي الواعي بمنزلته ، الطامح الى تحقيق مصير مشرف .



ـ 3 ـ

ابوهريرة الصحابي

هل هناك صلة بين بطل محمود المسعدي وبين سميه أبي هريرة ، صاحب رسول الله ؟ ذاك سؤال يمكن أن يخامر دارس هذه الرواية فمن هو هذا الصحابي الجليل الذي كان اكثر الصحابة حديثا واحفظ من رواه في عصره ؟والذي أوحى للمسعدي بروايته فرجع بدون شك الى ترجمته في المصادر واقتبس من شكلها خاصة .

كان اسمه في الجاهلية عبد شمس ، وكنيته ابا الاسود سمي في الاسلام عبد الله او عبد الرحمان واختلف في اسمه واسم ابيه اختلافا كثيرا يبلغ الى اربعة واربعين قولا واكثر ([1]) ، وينتمي الى الازد من دوس ، اسلم يوم خيبر في المحرم سنة سبع للهجرة ، وشهد هذه الغزوة مع الرسول وغلبت عليه كنيته .

سئل ابوهريرة : لم كنيت بابي هريرة ؟

قال : كنت ارعى غنم اهلي وكانت لي هرة صغيرة فكنت اضعها بالليل في الشجرة واذا كان النهار ذهبت بها معي فلعبت بها فكنّوني ابا هريرة .

---

1) اعتمدنا في هذه الترجمة :

ـ كتاب « الاصابة في تمييز الصحابة » لابن حجر العسقلاني ، الطبعة الاولى سنة 1328 هـ ، ج 4 ص.ص 202 ـ 211 .

ـ وكتاب « الاستيعاب في اسماء الاصحاب » لابن عبد البر القرطبي ، بهامش الكتاب السابق . الجزء السابق ص.ص 202 ـ 210 .

ـ سيرة ابن هشام : ط.بولاق .

وروي ايضا عنه انه كان يحمل هرة يوما في كمه فرآه الرسول فقال له : ما هذه ؟ فقال : هرة .

· فقال : يا أبا هريرة .

أما صفته الخلقية فهو آدم اللون ، بعيد ما بين المنكبين ، ذو ضفيرتين وكان يخضب .

حدث ابوهريرة قال : اما والله ما خلق الله مؤمنا يسمع بي ولا يراني الا أحبني . قيل : وما علمك بذلك يا ابا هريرة ؟

قال : « ان امي كانت مشركة واني كنت ادعوها الى الاسلام وكانت تابى علي فدعوتها يوما فاسمعتني في رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اكره . فاتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وانا ابكي فذكرت له » . فقال :

— اللهم اهد أم أبي هريرة !

فخرجت عدوا ، فاذا بالباب مجاف ، وسمعت حصحصة الماء ، ثم فتحت الباب فقلت : اشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله . فرجعت وانا ابكي من الفرح فقلت : يا رسول الله ، ادع الله ان يحببني وامي الى المؤمنين فدعا .

كان ابوهريرة الزم الصحابة للرسول صحبة ، وكانت يده مع يده يدور معه حيث دار الى ان التحق الرسول الى جوار ربه فلم يكن احد من الصحابة اكثر منه حديثا وروى عنه نحو الثمانمائة من اهل العلم . قال ابوهريرة :

قدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر وانا يومئذ قد زدت على الثلاثين ، فاقمت معه حتى مات وادور معه في بيوت نسائه واخدمه واغزو معه واحج . فكنت اعلم الناس بحديثه ، وقد — والله — سبقني قوم بصحبته فكانوا يعرفون لزومي له فيسالونني عن حديثه منهم عمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير ولا والله لا يخفى علي كل حديث كان بالمدينة ، وكل من كانت له من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة » .

وكان ابوهريرة جريئا يسال الرسول عن اشياء لا يساله عنها غيره ، ويساله عن كل ما يخطر له . قال ابوهريرة :

قلت : يا رسول الله ! من اسعد الناس بشفاعتك ؟ قال : لقد ظننت ان لا يسالني عن هذا الحديث احد اولى منك لما رأيت من حرصك على الحديث .

اما بعد وفاة الرسول فقد استعمله عمر بن الخطاب على البحرين ، فقدم بعشرة آلاف . فقال له عمر : استاثرت بهذه الاموال فمن اين لك ؟ .

قال : خيل نتجت ، واعطية تتابعت وخراج رقيق لي .

فنظرها فوجدها كما قال ثم دعاه ليستعمله فأبى .

فقال : لقد طلب العمل من كان خيرا منك .

فقال : انه يوسف نبي الله بن نبي الله وانا ابوهريرة بن اميمة واخشى ثلاثا :

ان اقول بغير علم ، او اقضى بغير حكم ، أويضرب ظهري ويشتم عرضي ، وينزع مالي .

توفي سنة 57 هـ على الارجح وله ثمانية وسبعون سنة . بقصره بالعقيق وحمل الى المدينة حيث دفن . روى عنه انه عندما حضرته الوفاة بكى فسئل فقال : من قلة الزاد وشدة المفازة .

يبكي أبو هريرة وهو الذي كان يسبح كل يوم اثنتي عشرة ألف تسبيحة ويردد : اسبح بقدر ذنبي !.

دخل مروان بن عبد الملك على أبي هريرة في مرضه الذي مات به فقال ، شفاك الله .

فقال ابوهريرة : اللهم اني احب لقاءك فاحبب لقائي .

ويعلق راوى هذا الخبر :

« فما بلغ مروان وسط السوق حتى مات ! »

رحم الله ابا هريرة ورضي عنه وأرضاه .

حديث لم ينشر للمسعدي *

❊ س : ما رأيك في القصة التونسية وأنت أحد أعلامها ؟

ج : مما وصلني من المجموعات القصصية ، حصل لي المام جملي بالقصة التونسية فهي تبعث على التفاؤل بالنسبة الى المستقبل وارجو ان ترسخ اقدام المؤلفين التونسيين في ميدان القصة وان تتبلور الاتجاهات الرئيسية والاساسية في القصة التونسية حتى تصل الى ان تكون مدرسة قصصية من بين المدارس الادبية في الادب العربي الحديث وهو في جملته الآن بدأ يتدقق ويتمحص بصورة متميزة للملاحظين بوجهه الحقيقي وملامحه وميزاته التي بها يعرف كما تعرف الاداب الحية كلها مما لم يكن في الحقيقة في العهود السابقة تتميز به حركة الادب .

كانت قبل الانبعاث الاول ، عهد عيسى بن هشام وغيره في النثر ، وعهد شوقي وحافظ ابراهيم في الميدان الشعري عامة ، محاولة بعث للادب العربي الكلاسيكي وان كانت الاهتمامات تحاول ان تلتصق بالعصر ومشاغل الفكر .

ثم جاء الطور الذي بدا فيه الادب العربي في مستوى الآداب الأخرى يتاثر بها ولكنه في حالة ضعف فكان انفعاله مع المعاصرة وتحديات العصر ، في شكل تقليد ، والدليل انه استطاع ان يتتلمذ الى آداب اخرى وان يتخذ شكل الرواية والشكل المسرحي مثلما قلد جرجي زيدان الرواية التاريخية .

❊ أجرينا هذا الحديث لمجلة « ديالوغ » ، لكن لم يتسن لنا نشره بها ، فآثرنا به كتابنا هذا .

كانت هذه الفترة في الجملة قائمة على روح التباري مع الآداب الغربية الاخرى ، وقد الفت عن هذه الفترة المؤلفات والدراسات وآخر ما وصلني دراسة لنادا توميش وقد كانت من تلامذتي بالصربون ، عنوانها : ([1]) « تاريــخ الادب الروائـــي بمصر المعاصرة » ، « فاذا امكن ان يؤلف كتاب في الادب المصري مثل هذا فانا اتمنى ان الادب التونسي يصبح من حيث الخصب والأصالة والطرافة يستحق مثل هذه الدراسات ، يذكر فيها مجموعة من الكتاب والمؤلفين الذين يغذون الحركة الادبية العربية بصفة عامة والاتجاهات الأدبية الفنية والفكرية بمآثرطريفة وميزات يضيفونها الى ما يبتكر الادباء العرب في سائر بلدان العالم العربي مشرقا ومغربا .

*** س : ما رأيكم في الأدب العربي الحديث ؟**

ج : ان الادب العربي بصفة عامة اصبح من حيث حجم الانتاج وتنوعه وتعدد المجموعات التي تضم المنتجين والمبتدعين في مختلف البلدان العربية ، في وضع يذكرنا بازهى العصور التي كان يوجد فيها كبار الكتاب في بغداد والقيروان والاندلس ، ويتميز ذلك الانتاج بخاصياته وخصائصه وطرافته .

هناك مجموعات من الكتاب العرب تنتج واصبحت البلدان

---

[1]) عنوان الكتاب بالفرنسية :

— « Histoire de la littérature romanesque de l'Egypte moderne ».

وقد امدت المؤلفة نسخة منه للمسعدي بهذه العبارة :

— « En souvenir de cette trop brève époque où il fut mon brillant professeur à la Sorbonne. Témoignage d'admiration pour son œuvre avec mon fidèle attachement ».

« ذكرى عهد قصير جدا كان فيه استاذي اللامع بالصربون شهادة اعجاب لآثاره مع تعلقي الامين به » .

العربية في عصر يضاهي عصور الازدهار وهي كلها بمثابة الجداول التي تصب في النهر الاكبر الذي هو الادب العربي الكبير .

ان الأدب العربي اصبح ادبا خلاقا اذ تجاوز التتلمذ والتقليد واصبح يستنبط اشكاله واتجاهاته واغراضه من صميم عبقريته محاولا ان يتخلص من كل تبعية فكرية للغرب وأتمنى ان تفوز تونس في هذا السباق الثقافي الفكري الذي اندفعت فيه مجموعة البلاد العربية وان تنال منزلة مكرمة وهي بذلك جديرة لانى اعتقد ان تونس والبلاد المغربية عامة قد ساعدتها الظروف التاريخية بنوع من العوامل اريد بها القتل فكانت مبعثا للحياة الا وهو الغزو الثقافي الاستعماري او السياسية الثقافية الاستعمارية التي كانت ترمي في بلدان المغرب العربي الى قتل اللغة العربية والادب العربي والسنة العربية والتراث العربي الاسلامي ، وهذا ما لا يعرفه المشرق لان الاستعمار لم يضغط بكابوسه على البلاد المشرقية بصفة مباشرة بالصفة التي ضغط بها بطول المدة على مختلف بلدان المغرب اكثر من قرن بالجزائر ، ثلاثة ارباع القرن بتونس واكثر من نصف القرن بالمغرب الاقصى .

فالتحديات لجملة انحاء العالم العربي الاسلامي كانت تحديات عامة ، اما نحن فقد عشناها تحديات تحز في لحمنا ودمنا يوميا بعامل السياسة الاستعمارية المباشرة ولكن الذي اراده الاستعمار من القضاء على ذاتيتنا الثقافية هو الذي كان باعثا في انفسنا لقوة الارادة ، ارادة المحافظة على ذاتيتنا وكياننا كشعوب تنتمي الى الحضارة أو الثقافة العربية الاسلامية، ولم تبق المسألة في مستوى تحديات حضارة او ثقافة متقدمة لحضارة او ثقافة متاخرة اي ان المسالة لم تبق في حد التساؤل عن سر تفوق الانكليز او الاوروبيين علينا ، بل اصبحت عندنا مسالة حياة او موت ، نحن مهددون بالقضاء على ذاتيتنا وهو ما جعلنا مندفعين بكل قوانا وبما فيها من غريزة المحافظة على كياننا والدفاع عن حضارتنا ولغتنا ، ودفعنا

الى الامعان في ممارسة الثقافة الغربية. وأن كنا نثقف ثقافة غربية وفرنسية رغم انوفنا وذلك الذي مكننا من التوغل في روح الحضارة او الثقافة الغربية وأهلنا للدخل مغامرة الكيان المستقل ونضطلع بمسؤولياتنا كشعوب كافحت حتى حصلت على استقلالها ونقدر على ان نجاري التيارات الغربية لا على سبيل التقليد بل صدورا عن ارادة اقامة الدليل على ان لنا ما نقول ولنا تصوراتنا ورؤياتنا وقدراتنا على الخلق والابتكار اي قدراتنا على ان نباري الغرب او نباهيه . ولعل هذا هو الذي يمتاز به قبل كل شيء آخر الانتاج الفكري والادبي في كامل بلدان المغرب العربي والذي يجعل اخواننا المشارقة في كثير من الاحيان يستغربون بل قد لا يفهمون جيدا ما به يختلف وجه الادب العربي في شمال افريقيا عن وجهه في المشرق ، يبدو لهم كانه كائن غريب من بعض الوجوه وهذا ما لمسته فيما يتعلق بمؤلفاتي خاصة واتمنى ان يبقى المغرب العربي قائما بدوره في ابراز طرافة العبقريات العربية الانسانية في الميدان الادبي بفضل ماله من وعي وادراك وفهم عميق لادق دقائق الثقافة الغربية بحكم ممارسته لها .

* س ـ لكم كتاب : « تأصيلا لكيان » ، كيف تعرفون الاصالة ؟ وما هو اتجاه هذا الكتاب ؟

ج ـ الأصالة هي قوة القريحة والقوة الذاتية التي بها تستطيع أن تنصرف لمعرفة وممارسة بل وملابسة غيرك بدون أن تشعر بأنك حدت أو زغت قيد أنملة عن كيانك الذي أردت أن تكون،

فانت عربي مسلم ، مفعم الكيان الباطن بماضيك العقائدي والسياسي والفلسفي والوجداني والاجتماعي الذي يتلخص في حضارتك وثقافتك العربية الاسلامية ، وبذلك تتقدم الى مباراة الافراد الاخرين والشعوب الاخرى وثقافاتها وآدابها لتبرز بينها شخصيتك وعبقريتك ورؤيتك الخاصة لمشاكل الوجود الانساني التي لا يخرج ادب من الاداب الاصيلة عن حيز التعبير عنها . اما اننا نستحق الحياة لاننا قادرون على ان نخلق الحياة او اننا لسنا

قادرين على ذلك ، فنحن محكوم علينا بالتبعية للغير او العبودية له او الاندماج فيه . وهذا الخطر ــ والحمد لله ــ قد طواه التاريخ عندما طوى صفحة الاستعمار الذي عرفته بلداننا خلال القرن او نصف القرن الماضي والذي خلف مع ذلك شكلا آخر من الاستعمار هو الاستعمار المقنع الذي يشكل الهيمنة الثقافية الفكرية وهو اخطر وجوهه . فبعد ان ذهب الاستعمار السياسي والعسكري بقي الاستعمار الجديد ، ويتخذ في كثير من الاحيان قناعا او شكلا مغريا من الاشكال الفكرية والادبية والفنية نذكر منها مثالا واحدا في الكثير من البلدان العربية ، وهو ما يسمى بالرسم التجريدي .

اذا لم نكن بلغنا بعد درجة فتح الفتوحات الفكرية والثقافية العديدة في التاريخ او في نطاق تطور الحضارة الانسانية في العصر الحاضر فاقل ما يمكن ان نحاول بقدر الامكان ان نخرج من طور التقليد المجرد وان ندخل على الاقل في طور القيام بتجارب تختلف عن تجارب الغير ، والسعي الى ابتكار ما نستطيع ابتكاره وان كان متواضعا . فاي ابتكار مهما تواضع خير من اي انتاج تشتم منه رائحة التقليد او الاخذ باتجاهات الغير .



قالوا عن المسعدي وروايته « حدث ابوهريرة قال .. »

يكوّن محمود المسعدي مدرسة أدبيّة تقف بنفسها شامخة على أسس فنّية خالصة، نسيج وحدها في أدبنا العربي المعاصر.

وقد افتتن عدد من النّقاد والأساتذة الادباء الجامعيين بأدب المسعدي، فنشروا عنه دراسات متنوّعة أشرنا إليها في القائمة البيليوغرافية لا تخلو من نظرة نافذة إلى خصائص النزعة الفنية المسعدية، نذكر بالتخصيص الأستاذ محمد اليعلاوي الذي لفت الانتباه إلى الحسّ الشاعري المرهف لدى المسعدي، وإلى الومضات البارقة التي « تروّض الحرف حتى ينقل الخفيّ العديد من المعاني » والاختراعات الفنيّة البحت التي كان مؤلف « حدث أبو هريرة قال » : أبا بجدّتها، والأستاذ محمود طرشونة الذي استطاع أن يكتشف في بحثه عن شخصية أبي هريرة أهمّ المراحل الوجوديّة التي مرّ بها، وخاصّة ظمأه إلى الانطلاق والحركة الدائبة والرغبة في الخلاص من قيود العقل والحسّ والأوهام ...

أما الأستاذ توفيق بكار فقد حلّل القريحة الرّوائيّة العجيبة التي نشأت عنها رواية « حدّث أبو هريرة قال ».

أما الأستاذ محمد رشاد الحمزاوي فقد نبه إلى الروابط الادبيّة الأصيلة التي تشد المسعدي بالتراث الديني والأدبي العربي خاصة منه الحديث النبوي الشريف إذ يعدّه من مصادر القصّة العربية.

البشير بن سلامة :

يمكن ان نقول انه احتضن عصره وفهم تياراتهِ ونفذ الى خباياه ، فهو متقدم فكريا الا انه رغم ذلك اختار في كتاباته لغة الازدهار العربي الاسلامي القديمة التي حملت مفاهيم جديدة بالنسبة لذلك العصر ولكنها ، وهي على تلك الشاكلة ، غير قادرة

على ان تحمل ما جد في القرن العشرين من تطور مادي ، فنحن امام تناقض غريب : مفكر له من قوة التفكير والاستطاعة على هضم المفاهيم الجديدة ما يجعله قادرا على الخلق والابتكار ، وهو مع ذلك يستعمل لغة قديمة فيتضاءل بطبيعة الحال مفعول ما يريد ان يكتب وتضيع الجدة الممكنة الكامنة في المعاني التي لم تفتقها الكتابة وطغى عليها الاسلوب ويتلاشى التاثير المنتظر رغم الروعة الباقية .

« اللغة العربية ومشاكل الكتابة

ـ الدار التونسية للنشر 1971 ـ ص 112 ـ 113 .

الشاذلي القليبي :

ان عالم المسعدي ليس بعالم استسلام ، بل هو عالم ثورة وطلب ، ومحاولة وعلاج ولئن انتهت ثورة غيلان (في السد) بالفشل والهلاك ، فلقد حاول وصارع ، والكفاح فضل الانسان وشرفه الأسنى .

فعالم المسعدي اذن عالم « انساني » يشيد بقيمة الانسان ..

وبعد فان من خصائص الادب الكبير ان يعتبر لا عن مشاكل الفرد فحسب بل عن حقيقة مأساة جيل بأسره ، ومأساة غيلان في الحقيقة مأساة جيل كامل من شباب تونس في أعوام ما قبل الحرب الاخيرة ، طغت عليه نزعة من نزعات الفكر الغربي ترد مشكلة المنزلة الانسانية الى عناصر فردية ، وتحصرها فيها ، ولا تطلب لها حلا الا في نطاقها . فتسربت اليه قيمها العاتية وصلفها الرومنطيقي الوهاج فشوشت دواليب في نفسه اشعلت في قلبه الحيرة فقطعته عن اهله واستاصلته من ارضه .

مقدمة السد ـ ط 1 ـ ص 43 ـ 45 .

توفيق بكار :

لا أظن قريحتنا الروائية خلقت أقوى ولا أبعث على الدهش من شخصية ابي هريرة ، كائن شديد الغرابة يمتزج فيه الصوفي بالمغامر ، يهيم باللانهاية كعشاق الحق قديما وله وجدهم ، جرىء يحب المجازفة كهواة المخاطر من هذا العصر ، قرر ان يضطلع بمصيره في كامل المسؤولية ، ان يحيا صاحيا مفتوح العينين شديدا على ذاته وعلى غيره لا يموه شيئا على نفسه ولا يساوم على ما يعتقده الحقيقة ولا يتسامح فيه مع احد ، فهو دائم الحيرة لا يني عن التطواح كأنما يقلقه في كل لحظة الى حد الذعر ان يخطىء الوجود فيفوته ، يعيش في دوامة السؤال لا يدع امرا الا استفهم عنه ولا تجربة الا زج نفسه فيها ، يشك ويفحص ويختبر . متطرف في كل شيء في الافكار والعواطف والمواقف ، يهوى التناهي فاذا طرق سبيلا مضى فيه لا يقف الى ان يبلغ الغاية . تفتنه الحياة ويفجعه الموت على السواء الى الجنون وهو مشدود اليهما كالمعذب تكاد عراه تنفصم من شدة التوتر ، يحب ان يتحدى وتغريه العظمة ، يريد ان يكون انسانا ، ان يكون الانسان ولا يخلو من عجب قد يصل الى التعنجه ، شخصية عتيدة وبلا مراء صولة مذهلة من قوة الابداع .

مقدمة الطبعة الثانية
لـ « حدث ابو هريرة قال .. »
— ص.ص 17/18 —

طه حسين :

تاثر كاتبنا بالاديب الفرنسي المعروف (البير كامو) كما تاثر بالادب العربي وبالوطن التونسي والحياة التي كان يحياها قبل الاستقلال وكانت هذه القصة صورة رائعة لهذ الالوان من التاثر كلها فالكاتب يائس او كاليائس يدفعه الامل والخيال وطبيعته

الانسانية الى ان ينشىء ويبدع ويبتكر فينفق الجهد ويحتمل العناء ويشقى بالوان من المشقة والالم حتى اذا استيقن انه قد بلغ الغاية وانتهى الى النجح ذهب كل ما انشا وكل ما ابدع وكل ما قدر لانشائه وابداعه من نتائــج كأنــه لــم يكن وكانه لم يبذل جهدا ولم يحتمل عناء ولم يقهر المصاعب او يذلل العقاب ، او قل – ان شئت الدقة – انه يتصور الانسان كذلك في كل ما يقدر وفي كل ما يدير وفي كل ما ينشىء .

والانسان على ذلك مغرور بطبعه فجهوده الضائعة وعناؤه الذي لا يغني عنه شيئا والمصاعب التي تذعن له والعقاب التي تذل له ثم تثوربه ثم تعود سيرتها الاولى كانه لم يقهرها ولم يذللها ولم يشق الاعوام الطوال بما بذل من جهد واحتمل من عناء في سبيل قهرها وتذليلها ، كل ذلك لا يفل من عزمه ولا يجعل للياس الى قلبه او عقله سبيلا ..

اما كاتبنا فقد اذعنت له لغته اذعانا واستجابت له في غير مقاومة ولا عناد واخشى ان تكون قد استجابت له اكثر مما ينبغي فأطمعته في نفسها واغرته احيانا بان يشق عليها ويرهقها من امرها عسرا ، وكاتبنا يبدا بانشاء بيئة شعرية خالصة لا تكاد تقبل عليها حتى ترى نفسك في عالم من الخيال غريب لا عهد لنا بمثله في الادب العربي الا احيانا قليلة حين يرمز الفلاسفة الى بعض ما يريدون تصويره من الوان الحكمة فيتصورون انسانا فردا قد وجد وحيدا في جزيرة خيالية فاستكشف وحده العلم والحكمة كما فعل ابن سينا في الشرق وابن طفيل في الغرب ، او حين يرمزون الى ما يكون بين الانسان والحيوان من استئناس وتذليل ومن فورة وعصيان كما فعل اخوان الصفا في بعض رسائلهم . ولكن كاتبنا على ذلك خصب الخيال نافذ العقل غني اللغة يشيع الحياة والعقل والمنطق في الجبل وصخوره وحيوانه المستانس والمستوحش ويشيع الحياة كذلك في الجو بما يبتكر به

من هذه الهواتف التي تتحدث بين حين وحين الى الانسان والحيوان والجبال بما يريد الكاتب ان تتحدث الى هؤلاء جميعا .

العمل — 27 افريل 1957 — عن جريدة الجمهورية المصرية — 27 فيفري 1957

محمد اليعلاوي :

انه من المسلمات البديهية ان نقول ان محمود المسعدي متاثر بالقرآن ، تائق الى اعجازه ، ولا غرابة ان يكون فصيحا من « رتل صباه على انغام القرآن وترجيع الحديث فصاغ من ايقاعه منذ الصغر لحن حياة » بل ان فصاحته معجزة بالمعنى الذي ابتكره الجرجاني للقرآن ، اعني : دقة في ايجاز في وضوح في ابداع جمالي .

... هذه الاسماء المتقادمة ، هذه الرمال الندية السائلة ، هذه الادوية التي تمرح فيها العرائس والشياطين ، هي التي كانت تجسم الحظيرة الثقافية لشباب ما قبل الاستقلال ،ولا يزالون اليوم ، وهم شيوخ وكهول ، لا يفهمون الانتساب الى الثقافة العربية الاسلامية الا على اساس شعاري « قفا نبك » و « لا اله الا الله » اللذين كانت تهتف بهما مجلة « المباحث » .

... تقابل هذه الفخامة خيالات لا نعلمها الا عند المرهفين من الشعراء : فتاتي له صور وتشابيه غريبة بتلك الغرابة التي شهد افلاطون بانها أم الاعجاب ..

... ان اشفاق المسعدي من التشعب في الجملة والتفريع الفضولي يزهده حتى في الازدواج الجاحظي فضلا عن السجع البديعي ..

في هذا الكتاب يظفر مدرس اللغة بضالته المنشودة من شواهد معاصرة حية على هياكل قديمة ..

وفي الكتاب ومضات بارقة تروض الحرف حتى ينقل الخفي العديد من المعاني .. وله الى نلك اختراعات ما علمنا انه سبق اليها الا نادرا .

الشكل في « حدث ابوهريرة قال .. »

حوليات الجامعة التونسية — العدد 12 ، 1975 ص.ص : 89 —

محمد رشاد الحمزاوي :

« ان الحديث عند المسعدي يستمد اعجوبته من تقاليد ثقافية وحضارية عربية اسلامية منها :

أ) الحديث بمعنى الآية والمعجزة مثلما نص على نلك القرآن الكريم ، وهو كثير ناخذ منه على الخصوص :

« وهل اتاك حديث موسى اذ راى نارا فقال لاهله امكثوا » . (سورة طه : 20/9) ...

ب) الحديث بمعنى السيرة الخارقة للعادة والعبرة المستمدة من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ج) الحديث المروي عن صحابة الرسول والتابعين ومنهم ابو هريرة المحدث الشهير الذي روى عن رسول الله سيرته ومعجزاته ، ولقد استعمل اسمه في « حدث ابوهريرة قال .. » .

د) الحديث بمعنى اساطير الاولين واخبار من مضى من نلك اخبار ملوك اليمن التي كان يستحسنها معاوية وتطيب لها نفسه .

هـ) الحديث بمعنى القصة الاسطورة والترجمة الذاتية ، مما نجده عند الكسائي (ت 806 م) في قصص الانبياء وابن النديم (ت 995 م ؟) في الفهرست ، وابو الفرج الاصبهاني في الاغاني .

... ان المسعدي من المثقفين العرب المسلمين الذي استوعب ثقافته لغة ومحتوى ، واحاط بتيارات الثقافة الغربية الجارفة لكنه من الرافضة الذين لايخضعون لتقليد ثقافتهم ولا يقرون عن وعي استبداد الفكر المركزي الاروبي الذي حكم ببطلان كل ما لم يسر على منهاجه ومعاييره .

... المظهر التقني يعتمد على رفض القصة الغربية في جميع عناصرها واطوارها ادراكا منه انها على رواجها وشيوعها واستبدادها بالادب لاسباب عدة ، فانها لا تستحق ان تصبح مثالا ادبيا كونيا ، لان تصور الاشكال الادبية يتكيف بتكيف حضارات الشعوب وعبقريتها مثلما يتكيف بذلك نحتها ورسمها ورقصها لان كونية التفكير الانساني لا تنفي التنوع والتلون ،

وهذا ما دعا كاتبنا الى العودة الى تراثه الديني والادبي .. مما حدا به الى استكشاف الحديث الشريف مصدرا من مصادر القصة العربية ..

.. ان أحاديث ابي هريرة نجوى واسرار من الحديث ، يبدو ان المسعدي يستمده في كثير من الاحيان من نفسه وتجربته الحياتية التي يريدها حكمة لغيره مما تشهد به عادة الحكم المبتدعة او المضمنة في نصوصه ، فهي تتجاوز احيانا مكوناته الثقافية لتعبر عن خلجات نفسه ومتاهاتها التي يمكن ان يدركها التحليل النفساني ..

خواطر حول بعض الاحاديث من « حدث ابوهريرة قال .. »

الفكر . السنة 23 ، العدد 9 جوان 1978
ص.ص 25/46

محمود طرشونة

نجد تجسيما للارادة الحية في بحث ابي هريرة عن المطلق وبكر السبيل ، واعالي القمم ، وعن الغيبة تطلب فلا تدرك ، ثم تدرك بعد رحلة روحية مضنية اولها بعث الى الوجود وعالم الحس والجمال والمتعة وآخرها معراج ، بينهما تاملات عميقة في الذات البشرية واشواقها واهوائها وفي منزلة الانسان في الكون ، وفي الحياة والموت ، والحق والباطل ، والحس والجمود ، والقضاء والقدر ، والايمان والكفر ..

فابوهريرة ذو نفس ضمأى الى الاطلاق والحركة الدائبة ، يتوق الى السماء لكن تشده الى الارض قيود العقل والحس والوهم الكبير . تلك ماساة كل من يرفض حياة كحياة الاموات ويريد « عالما أجمل من عالمك هذا » كما جاء في فاتحة الكتاب . يقول ابوهريرة : « وددت من زمن بعيد لو اني علقت بين السماء والارض او اني جلست على قمة جبل وقد طلقته الارض فطار » (1) لذلك

1) حدث ابوهريرة قال .. ص 59 .

« كره كل ما يدوم » و « غلب نفسه على كثير من متاع الدنيا والاخرة » و « وضع من الناس كثيرا » فمال الى العزلة ثم اعتقد ان الفعل ينفي العدم (حديث الطين) . وقد صورته ريحانة احسن تصوير عندما قالت : « وكان شديد الكره للنزول يرتاد ولا ينزل ، ويقتله الطمع ويحييه الياس ويخاف ان يستقر الجهد وينقطع الشوق » (2) .

وقالت : « لقد كان دائم التوق الى الشمس ، دائم الخوف من طلوعها ويقول : ان استطعت فاجعل كامل حياتك فجرا » (3) .

وصورته ظلمة الهذلية في كلمات بعيدة الاشارة الى ما في نفسه من شوق الى المطلق « فاذا عينه اشد ما رايت شوقا الى ما لا تراه غيرها من العيون فكأنها تنشئ مرئيها انشاء وكأن روحه البصر » (4) وكان يقول : « الا سبيل الى تعليمي ما ينسى ؟ ألا سبيل الى غير المعقول [....] أليس فيكم من يحذق صنع الأصوات تحضر الآلهة وتكسر الزمان المحدود » (5) .

وبدأ أبو هريرة رحلته الروحية بحثا عن المطلق وأغوار الذات بترك الصلاة والاقبال على ملذات الأرض ومتعة الرقص والغناء فتخلص من دنياه الاولى ـ دنيا الجمود ـ الى دنيا ثانية هزته فيها أريحية عذبة وطرب وفرح . فكان البعث الأول .

وكانت لأبي هريرة زوجة لا يرتاح الى عشرتها لانه « أرادها على الجبال ... فقصرت عن ذلك » (6) فأعرض عنها الى أن أحرقتها الصاعقة ليلة فاحرق بيته وعاد الى ريحانة . وهي قينة أنس فيها توق الى المطلق كتوقه وعرف أن لها مأساة دفعتها الى ملازمته . فقد أتت النار يوما على أهلها بعمان فرحلت مع من بقي من قومها

2) نفي المرجع ص 73 .
3) نفس المرجع ص 64 .
4) نفس المرجع ص 135 .
5) نفس المرجع ص 138 .

الى الحيرة فسباها بعض سادتها طفلة ورباها ثم عشقها فامتنعت عنه وأطمعت شباب الحي دون أن تقع لاحدهم . ولما عرفت ما في نفس أبي هريرة من حب للدنيا وسعى وراء المطلق وارادة حرة رضيت بصحبته .

لكن ريحانة تمثل الاستقرار وهو رجل راجل كاره للجمود « مريد » بكر السبيل فوضعها وصار يحلم بالفعل مع الناس . فرأى في منامه رؤيا غريبة :

راى قوما يكونون في مثل حجم النمل تارة وفي مثل حجم الفيلة اخرى ، وينشدون شعرا يعبر عن « رداءة العقل » و« سقم الفكر » و« بقاء الفعل » و« بسلامة الجهد » .

ويقولون :

فلنبن بنا ينفي العدم

وسرعان ما جسم حلمه ذاك بنزوله في قوم يتقاتلون زمن القحط . فيلهم على مناطق يكثر فيها الخصب وعلمهم ارادة الفعل والخلق والانشاء حتى اصابوا « من الفاكهة والريحان عنبا وتفاحا وتينا ورمانا وعبهرا ونسرينا » (7) ورغبهم عن القتل فرغبوا عنه ..

لكن سرعان ما عاد اليهم التحاسد والتباغض فهجرهم وانعزل بكهف جبل ، وقد صعب عليه ان يدرك ما في الناس من خسة طبع وتقصير عن الارادة ففضل الوحشة على الجماعة والفرد على العدد وقال : « عشت في الناس ثلاثين ، فلم ار والله في واحدة منها الا ذئبا ينهش ذئبا أو صاديا يشرب فيشتد صداه » . (8)

ثم اخذ ياسه من المطلق يشتد من حديث الى آخر : فاكتشف ان الدنيا عبث في « حديث العمى » ، وان الايمان باطل في « حديث الغيبة تطلب »

---

6) نفس المرجع ص 74 .

7) حدث ابو هريرة قال .. ص 108 .

8) نفس المرجع ص 113 .

فلا تدرك » وأن الموت حتمي في « حديث الهول » ، وخشى ألا يكون بعد هذا الموت بعث في « حديث الجمود » .

لكنه لم يحرم خلال كل ذلك متعة البحث والسير الدائب نحو غايته . فقد رأى نفسه في « حديث الحمل » في ذروة النضج حاملا بزاخر المعاني وعظيم التجارب ، وكانت له مع راهبة الدير أيام ، وتعلم الحكمة من أبي رغال ذلك العربيد الضاحك الباحث هو أيضا عن المطلق .

وأخيرا تنتهي به الرحلة الى بعث آخر ، الى معراج تطلب فيه الغيبة وتدرك : فاذا قارنا بين البعث الأول في بداية القصة والبعث الآخر في نهايتها أمكن أن نقيس المسافة الكبيرة التي قطعها أبو هريرة في « سياحته » . ويكفي لذلك أن نستخرج بعض كلمات وردت في الحديثين لنفهم المنطلق والمنتهى . ففي الحديث الأول بعث أبا هريرة صديق أطربه « **مطلع الشمس** » و « **المشرق** » و « **جارية ترقص** » فوق الرمال وترسل صوتها « **بالغناء** » وصوت « **مزمار** » يبعثه فتى يعانق الجارية بعد « **الطرب** » ويغيبان في الأفق . وكان رآهما الصديق « **يرقصان ويلعبان ويغنيان عاريين** » وكانا « **جعلا لحما مشويا وتمرا وعنبا وتينا بين يديه** » (9) وقالا له : « **دعي الناس فلم يأتوا ودعينا فجئنا** » تلك « **دعوة الدنيا** » وما فيها من متع مادية .

... اما في « حديث البعث الاخر » فابو هريرة هو الذي دعا صديقا له وعرض عليه « يوما ليس من الدهر » وسار واياه « قبل الغروب » ووصل به الى « جبل حزيز صعود » طالبا « النهاية » ثم اذا « هاتف » يهتف شعرا يتضمن هذه الكلمات :

انا الحب يناغيك انا الشوق طغى فيك

وترددت كلمات الابد والحب والجلال والعلاء وعلوم الغيب وخفايا الرب والروح ثم سكت ابوهريرة وقال : « هذا ما كنت اطلب (10) » وغاب في الليل وكان البعث الاخر . ١٥

9) نفس المرجع ص 25 .

10) نفس المرجع ص 188 .

ولا يخفى ما بين اللوحتين من تقابل في المعاني والالفاظ والغايات ، فبينما تذكر الصور الاولى بشعر عمر الخيام تذكر الثانية بشعر الحلاج .

وبذلك لم تكن رحلة ابي هريرة الروحية عبثا انما مكنته من كشف الذات ومعرفة الصفات .

الادب المريد
في مؤلفات المسعدي .
ص.ص 20ـ25 .

عيسى الناعوري

تظهر في لغة المسعدي شخصيته المتميزة البارزة ، كما تظهر هذه الشخصية عينها في افكاره وخيالاتـه واسلوبه الفني .

محمود المسعدي وكتابه السد . ص 157

خليل الجر :

والاستاذ المسعدي الآن من كتاب الطليعة في تونس ، لآثاره الادبية والفكرية دوي تعدى الحدود التونسية حتى ترددت اصداؤه في مختلف انحاء العالم العربي ..

من رسالة مؤرخة من بيروت في 5/12/1962 .
انظر نصها ص.ص 193 ـ 197 في آخر الطبعة الاولى من « حدث ابو هريرة قال .. » .

الطيب صالح :

نظرت في اساليب عدد من الكتاب ، ولابد انني اخذت شيئا من هنا وشيئا من هناك ، اذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر مصطفى صادق الرافعي ، طه حسين ، احمد زكي ، ابراهيم عبد القادر المازني من مصر ، جمال محمد احمد والمرحوم احمد الطيب من السودان ، مارون عبود من لبنان ، محمود المسعدي من تونس .

الطيب صالح عبقري الرواية العربية ـ دار العودة بيروت 1976 ـ ص 206 .

نور الدين بلقاسم

ابوهريرة قد استبدت به مشاكل العصر وقضاياه فوعاها بعمق ، مما جعله يرزح تحت مشاكل وجودية ، ومعذبا بتبدلات نفسيته الحادة .

وابطال المسعدي يتخبطون بين وجودين : وجود ارضي تأبى النفس البشرية خلاله الا ان تتمرغ في اوحاله وادرانه ، وتشبع نهمها من سعيره المحرم الغامض ، وبين وجود مطلق ، يحاول هؤلاء الابطال ان يتساموا فيه على غرائزهم وخصائصهم البشرية ، كي يقتربوا من الذات العليا بالتصوف والعبادات ومثالية النفس .

ولعل انقسام ابطال المسعدي بين هذين الوجودين ، وتشتت نفسياتهم بين الاعلى والاسفل .. هو الذي اضفى على كتابات المسعدي تلك النغمة الشعرية الحزينة البعيدة الغور ..

هؤلاء الابطال ، رغم حياتهم المتلاحقة فانهم ينهزمون ولا ينسحقون ، يفشلون ولا يستسلمون ، مما يجعلنا نفكر في صورة الانسان عند المسعدي وتشابهها مع صورة الانسان عند نيتشه .

... وهم يتعذبون نفسيا لان طموحهم يتعدى حدود الواقع ، والامكانيات البشرية ، فابوهريرة يحاول ان يذوب في المطلق بلا جدوى .. وظلمة تريد ان تقتل الشهوة في نفسها وتخلص للعبادة ولكنها لا تستطيع ، وابوهريرة يحاول ان يجمع الاقوام المتقاتلة في ظل الاخوة والوئام ، ولكنه لا يتوصل الى ذلك . فمصدر عذاب هؤلاء الابطال هو انهم يحملون بذرة العظمة في ذاتهم ..

فالمهم هو مزيج من الكبرياء الجريح ، والعظمة المكلومة ، التي لم تستطع ان تصل الى منتهى الطموح الذي يناسبها .. وكثيرا ما بدت البطلات في اقاصيص المسعدي ممثلات لدور الضعف في الانسان .

الألم الحاصل لهم من صراعهم مع طبيعتهم ومع مشاكل الحياة التي يعترضونها في عالمهم شحذ طبائعهم ، ورقق نفوسهم ، وجعلهم اقرب الى الارواح الممتازة باللطف ..

انه (المسعدي) يريد ان يعبر بواسطتهم عن رأيه في الموت والحياة ، فهذه الجارية ريحانة تتكلم بلغة « كانت » وتخمين « أفلاطون » وهي المراة التي احترقت بالشهوة وذابت في اللذة ،تقول في حديث القيامة قبل ان تقوم للرقص حول النار : « يثقل الكون اذا هم ان يكون » .

« الشكل والمضمون في ادب المسعدي »
ص.ص : 28/36

الحفناوي الماجري :

يعتبر هذا الكتاب هاما في تاريخ الادب العربي .

ولا تعود أهميته الى قالبه الشكلي فقط ، بل وخاصة الى القضايا التي اثارها ..

... هل تبنى المسعدي حقا قضايانا ؟ هل عبر عن شواغل آبائنا وهم يعانون فترة الاستعمار وهي الفترة التي عاشها المسعدي وكتب فيها معظم فصول الكتاب ؟ ..

اما اختياري لكتاب « حدث ابو هريرة قال .. » دون آثار المسعدي الأخرى فانه يعود الى سببين : اولهما ان هذا الاثر كان اول ما كتب المسعدي فيعتبر باكورة أدبه ، وثانيهما انه أثار كل القضايا التي احتوتها بقية الآثار ، فكانه هو الاصل والبقية فرع له .

المسعدي ، من الثورة الى الهزيمة
في حدث ابوهريرة قال .. ص 8 .

نورالدين صمود :

اما الشعر الحقيقي النابع من الضميم فهو نلك النثر العالي الذي يداني بل يفوق الشعر الموزون المقفى في كثير من الاحيان ، وحسبك ان تقرا هذه المسرحية (السد) لتظفر فيها بالنفس الشعري الرفيع .

محمود المسعدي وكتابه « السد » .
الدار التونسية للنشر ــ ط.2.1979 ــ ص 43 .

****

المراجع

1) تآليفه :

1) « مولد النسيان وتأملات اخرى » : اول ما كتب المؤلف ، طبع الدار التونسية للنشر . تونس 1974 . يحتوي في الاخر على قصتي « المسافر » و «السندباد والطهارة » .

2) « السد » ، رواية في ثمانية مناظر : اول مؤلـف نشر للمسعدي في كتاب ، طبع شركة النشر بشمال افريقيا ـ تونس 1375/1955 . قدم له الاستاذان محجوب بن ميلاد والشاذلي القليبي .

يحتوي الكتاب في الاخر على قصة « المسافر » .

ـ الطبعة الثانية : الدار التونسية للنشر 1974 .

3) حدث ابوهريرة قال : كتبت خلال سنتي 1938 و1939 .

ـ الطبعة الاولى : الدار التونسية للنشر 1973 .

ـ الطبعة الثانية : دار الجنوب للنشر تونس 1979 .

من سلسلة عيون المعاصرة بمقدمة دراسية للاستاذ توفيق بكار .

4) « تأصيلا لكيان » : يحتوي على مقالات ومحاضرات في الادب والفلسفة والثقافية وافتتاحيات كتبها المؤلف للمباحث وبعض المقالات السياسية والترجمات من الادب الاجنبي نشر مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع ، تونس 1979 .

5) من ايام عمران : مخطوط . نشرت بعض فصول منه

قليلة : ـ يوم القحط ، (تاصيلا لكيان ص 195 ـ 196) .
ـ حديث الصمت (تاصيلا لكيان ص 197) .
ـ حديث الضحية (الفكر افريل 1957) .
ـ يوم القطيعة (الندوة ـ اوت 1954) .
6) مذكرات : مخطوط .
7) اربع اقاصيص قصيرة :
أ ـ المسافر : في كتاب السد ط.1 . في مولد النسيان ط.1 .
ب ـ السندباد والطهارة : مولد النسيان ط 2 .
ج ـ قصة تاريخية : « الاشعث » نشرها في مجلة « العالم الادبي ؟ »لكنني لم اعثر عليها .
8) الايقاع في السجع العربي : (بالفرنسية) تحت الطبع لدى مؤسسات ابن عبد الله ، تونس .

2) الدراسات الخاصة :

1) نورالدين صمود : محمود المسعدي وكتابه السد ـ الدار التونسية للنشر ط.2 تونس 1979 . مجموعة من الدراسات عن السد .

2) محمد اليعلاوي : الشكل في حدث ابوهريرة قال .. » حوليات الجامعة التونسية ، العدد 12 السنة 1975 ـ كلية الاداب والعلوم الانسانية ص.ص : 89 ـ 97 .

3) محمد رشاد الحمزاوي : خواطر حول بعض الاحاديث من « حدث ابوهريرة قال .. » الفكر ـ السنة 23 ـ العدد 9 ـ جوان 1978 ـ ص.ص 25 ـ 46 .

4) توفيق بكار : مقدمة الطبعة الثانية لحدث ابو هريرة قال ... : انظر اعلاه رقم 3 .

5) محمود طرشونة : الادب المريد في مؤلفات المسعدي ، الطبعة الاولى ـ تونس 1978 .

6) الحفناوي الماجري : المسعدي من الثورة الى الهزيمة في حدث ابوهريرة قال ... : تونس 1980 .

7) نورالدين بن بلقاسم : الشكل والمضمون في ادب المسعدي ـ الفكر ـ السنة 17 ، العدد 3 ـ ديسمبر 1971 ـ ص.ص 35/28 .

8 ـ الحبيب محمد علوان : « في النقد والثورة » فصل : محاولة في فهم رواية السد . الانسان والفعل في السد . القاهرة 1976 ـ ص.ص 37 ـ 135 ، وهو فصل طبع اخيرا على حدة في دار بوسلامة للطبع والنشر .

9 ـ محمد مختار العبيدي : « خواطر عن مولد النسيان » ـ مجلة « تبادل » المجلد 2 العدد 2 ـ جويلية 1980 .

10 ـ « التنمية اللغوية في أدب المسعدي » فصل لعبد العزيز بن يوسف ـ من كتاب « تنمية اللغة العربية في العصر الحديث ص ص 67 ـ 87 ، نشر وزارة الشؤون الثقافية . منشورات الحياة الثقافية ، تونس 1978 .

11 ـ « الحياة الثقافية » : عدد خاص بالمسعدي : السنة 6 ، العدد 13 . جانفي ـ فيفري 1981 .

مراجع بالفرنسية

— **Mohamed Férid GHAZI :**
— Le roman et la nouvelle en Tunisie. M.T.E. 1970.
— **Taoufik BACCAR :**
— Mahmoud Messadi, une Metaphysique de l'Homme et une Esthétique de l'Ecriture.
Echanges - Volume -II- n° 3 déc. 1980 pp. 211-227.
— **Ahmed TOUILI :**
— « Le vouloir et le devenir dans l'œuvre de Messadi ». in Dialogue n° 234 du 24-2-1979
— « A la recherche d'une authenticité ». in Dialogue n° 264 du 24-9-1979.
— « Le sens d'une œuvre ». in Dialogue n° 316 du 22-9-1980

مختارات من « حدث أبو هريرة قال ... »

البعث الاول

« سنعلم يوم نبعث من بين الاموات ... »
(ابسان)

حدث ابو هريرة قال :

جاءني صديق لي يوما فقال : أحب ان اصرفك عن الدنيا عامة يوم من ايامك ، فهل لك في ذلك ؟ فقلت : ان وجوه الانصراف عن الدنيا كثيرة ، واحب ان تعرفني ايها اخترت لي . فقال : اخفها وقعا على النفس والذها مساغا . قلت : اني اخاف ان يكون انصرافا ليس بعده عود ، ولست متهيئا للرحيل . افلا سبيل الى الافصاح ؟ قال : لا . وضرب بكفه على كتفي . قلت : اذن يكون ذلك متى ؟ قال : غدا .

فلما كان من الغد سبق الفجر الي . وكنت لا اعهده مبكارا . فاستغربته في تلك الساعة وقلت : هممت ان اقسم أنك لم تبكر كيومك قط . ما الذي عجل بك ؟ قال : ننصرف لساعتنا . قلت : مهلا يا عافاك الله . فاني لم اتوضا وقد تبين الخيط الابيض من الخيط الاسود . نتوضأ فنصلي ثم ننصرف . فقال : لو فعلنا لفاتنا خير كثير . دع الصلاة اليوم فالله غافرها لك ، ولنذهب فليس منه بد . فلم اجد الا القيام معه . فقمت وانا استغفر الله واصلح من

ثيابي . فذهب بي الى بيته ، وكانت بفنائه نجيبتان مرحّلتان ، فقال : اركب هاته . ففعلت وركب الاخرى .

ثم خرجنا من مكة وانصرفنا عن طريق القوافل ، وسرنا سيرا حثيثا حتى أصبنا الرمال وجعلت النجيبتان تغرسان وتقلعان فاذا خطاهما لينة عذبة كانها مس خفيف . ونحن نصوب ونصعّد من كثيب الى كثيب . وكنا في غور اذ قال : الآن نترجل . فقلت : والله ذاك ما كنت اريد ، فقد اخذ مني الرمل ولونه ولطفه . ثم ترجلنا وأنخنا راحلتينا وعقلناهما وجلسنا على الرمل . فجعلت اضرب برجلي واقلّب يدي فيه فاجد منه كمس لطيف النهود ، وكانت قد نامت فيه برودة الليل فهو كاليقين بعد الحيرة . وصاحبي مستلق مصيخ كانه يتوقع سمعا .

ومضت ساعة . ثم اذا هو يومىء بيده ان اصعد في الكثيب . فصعدت فرأيت على راس الكثيب المقابل من وجه الشرق شبحين . وكان عاليا فكانهما على صفحة السماء المبيضة . وقال لي صديقي : انظر ولا تتكلم . وتبينت الشبحين فتبين لي فتاة وفتى ، في زي آدم وحواء ، ممدودان جنبا الى جنب متجهان الى مطلع الشمس ، وكانت على وشك البزوغ فالمشرق كلهيب النار .

ثم بدت من الشمس بوادر نور . فاذا الفتاة ارتمت وقامت كانها الظبية احست بالنبل . وجعلت تهم بالشرق فلا تخطو الاخطوة ، ثم تتراجع وترسل يديها الى السماء والشمس ، كانها تروم ان تدركهما ، ثم تتراجع بهما في هيئة من الرقص كانها الغصن يهزه النسيم . وسكنت طرفة عين . ثم عادت في الرقص الى مثل حركاتها الاولى . فرايتها لسانا من الرمل قائمة على راس الكثيب ، وكانها ولدت منه او ذابت فيه . فهي رقيق الرمل يجري بين الاصابع . وارسلت الى ذلك صوتها بالغناء . فكان يترقرق في حلقها ، ويرق لرنين يديها وثدييها وكامل جسدها ، ثم يتراجع بتراجعه حتى إخاله سكن . ثم تعود فترقص وتغني :

سلام على الروح يسري على يسر
سلام على النور سلام على الفجر

حتى كأن صوتها ورقصتها في الاندفاع والتراجع ابتسامة السرور اول نشاته . ثم سكنت ويداها الى الشمس البازغة واحدى رجليها مرسلة كالرمح المصوب في الهواء ، كانها تهم ان تطير ، فكاني بها قد انفصلت عن الارض وطارت . ثم انفجر صوت مزمار في قوة وروعة . وارتمت الجارية ترقص في سرعة وشدة . واذا المزمر الفتى ،وقد قام فبدا على وجه السماء المشتعل كالصنم الحي . وجعلت الفتاة تدور او تقف ، وتقوم او تهبط ، فتقع في هيئة الساجد فاذا هي قائمة ، او ترتفع فاذا هي ساجدة . فكانها دخان كاذب او سراب خلّب او خفة ولا جسد . ثم انقضت من صوت المزمار قوته . فارتد رقيقا حتى كانه وحي من الله او همس الشياطين . وسكنت عن الجارية سرعة الرقص ، فصارت تتثنى بتثني الصوت وتتهادى لتهاديه وتبطىء الدوْر لبطئه ، حتى رايتها اصبحت نوبا في الهواء او سكنها نفس من النسيم فهي في لينه .

ودام ذلك ساعة . فرِحت له اريحية عذبة . وصرفني عن صديقي وهزني الطرب . حتى كدت آخذ في الرقص من حيث لا اشعر . ثم دق الصوت حتى سكن . واذا الفتى قد وثب الى الجارية ورفعها من خصرها فبدت على يديه ممتدة في الهواء ويداها مقرونتان في هيئة المقبل على البحر ان يغوص فيه ، والشمس ناشئة تكسوها . ثم حطها الفتى الى الارض فتعانقا وصوّبا في الكثيب يرقصان معا . حتى حجبهما عنا .



حديث المزح والجد

حدث رجل من الانمار قال :

كانت ريحانة من سبايانا . سباها في بعض غزواتنا بالحيرة رجل منا يقال له لبيد ، وهي لا تزال صغيرة مرسلة الشعَر . فنشأت فينا . وكانت حسناء غريبة الحسن . كأن في عينيها نارا وبفيها ماء حميما . فارادها لبيد في يوم من ايام الربيع ، وقد تبرجت كعوبا ، فدلّت ولاعبته ثم امتنعت وقالت : ظمأ على ماء مرقوب خير من ارتواء . ولم تزل به حتى كاد يُجن . ثم اقبلت على شبان الحي ، وكنت منهم ، غفر الله لنا جميعا . فكانت تعاشر الواحد منا ، ثم تهجره الى غيره . وكانت في ذلك تلقي لنا فنبسط الايدي ، فتمسك عنا وتولي . حتى تهيجنا كغبار في يوم اعصار . وهو في هيامه بها لا يرى من ذلك شيئا . وانكرت نساء الحي فعلها . فجئن لبيدا ، وهو يومئذ لا يزال على عقله ، فقلن له : انا خشينا ان يكون من ريحانة فتنة . أفلا تمسكها عن فتياننا ورجالنا ؟ فغضب لبيد وقام يريدها بعصاه . فقالت ودلت واخذته من يده : لو اعتقتني لكنت لك . ولكنك مولاي ، فليس لك من نفسي . فظنها لانت ومالت . فاعتقها . فأمست ولم تصبح . فجُنَّ لبيد . فهو الى اليوم في اهله بوادي حرّان ، يخرج كل يوم الى سمرة هناك ، فيجلس ويقول في ريحانة من الشعر ما لا يفهم ولا يحفظ . ثم يضرب على الارض بعصاه ثلاثا ثم ياخذ غصنا من السمُرة

فيجعله في فمه . ثم يقوم فيسعى بين السمرة وبيته سعي الحجيج بين الصفا والمروة . حتى ينفضخ كالدلو ويسقط لوجهه . ويحتمله اهله الى بيته فينام .

وكانت ريحانة تحدثنا فتقول : انا آخرة قومي . وقد أكلتهم النار جميعا . كانوا من ولد البراء بن كيسان . وسكنوا العمان ثم خرجوا عنها بعد ان اصابت بيوتهم نار ذهبت باكثرهم . فجاء من بقي الحيرة ونزلوا بها فأقاموا ـ فانهم بها اذ غزونا قبلهم ـ فاوقدنا نارا فاصابتهم فماتوا بها جميعا . وادركها لبيد فوقاها النار وملكها . وكانت تحدث انه كان لقومها عن اساف ونائلة غير الخبر المعرووف لا يشركون فيه احدا . وتقول : ولم يبق اليوم من يعرفه غيري . فهو هنا مكنون الى يوم اموت . وتجعل يدها على صدرها فكاني بنهديها قد قاما واضطربا كرمال الكثبان نشأة الريح .

ولما حال الحول على جنون لبيد حججت الى الكعبة . فلما انتهيت من مناسك الحج كرهت ان يكون حجا بلا زيارة . فاني لمنطلق من مكة اذ رايت على طريق المدينة بيتا منفصلا عن البيوت . والناس بين داخل وخارج . ولم أكن رأيته قبل ، فجئته ، فاذا حانوت وعربدة وغناء ونبيذ وخنى . فانكرتها وانا على حالي تلك من العبادة . وبينا انا واقف راحلتي هناك ، اذ مر بي رجلان منصرفان من الحانوت وهما في نبيذ كثير . فقال احدهما ولسانه كالقصبة في الريح :

قفا نشك من ريحانة العين والحشى .

وقد ذهب عني شطر البيت . فقلت : لا ابرح البلد او اعلم جلية الامر . فعقلت راحلتي ودخلت . فاذا هي والله ريحانتنا تغني وتلقي الى الناس فيبسطون لها الايدي فتمسك وتعرض ، كما كانت تفعل بنا . فخرجت لساعتي وانطلقت لشاني . وكان آخر عهدي بها في شبابها وشبابي .

ثم طواني الدهر وذهب اترابي في الحي ممن يعرفون ريحانة جميعا . وانا انتجعنا قِبَل نجد . فنزلت بنا امرأة فاضافها بعض الحي . فسألت عنها . فقالوا : انها تقول ان اسمها ريحانة . فامرتُ ان تاتيني فجاءت . فكانت هي والله . وكانت من حي الى حي ، لا تسكن عن الترحال . تحدث عن ابي هريرة ولا تبكي ، وتقول : لقد جمدت عيني . وهي يومئذ قد ضرب الشيب في شعرها ، وذهب حسنها الا نورا منه في العين ، واصابت وجهها الاخاديد . وكانت لا تزال كعهدي ظريفة لسنة طيبة الحديث . ولكنها اصبح بها كالبح ، تقول فكانما تبكي ، وليس على وجهها الا نفس مسلمة راضية .



من حديث القيامة : أساف ونائلة

« متى كانت الحركة بشوق طبيعي لم تسكن البتة »
(ابو حيان التوحيدي)

حدث أبو المدائن ــ وكان من خاصة ابي هريرة ــ قال :
وقف عليّ ابو هريرة يوما فقال : ما كسبتَ في يومك ؟ وكان لا يلقاني الا قال لي ذلك فاكرهه منه . فقلت : الا تستحي؟ الا تجدّ في قولك ؟ لم اكسب شيئا . قال : لي عليك اذن ان ترحب بي : فقد جئتك مبتاعا . كم عندك من الشمع ؟ قلت : لا يزيد على الستين . قال : هي لي كلها . فقمت واحضرتها . فاخذها من يديّ وقال : اما الثمن فهو لك علي قضاء ، كصلاتي منذ سنين . فقلت : يا رحمك الله . او جئتني منتهبا ام مبتاعا ؟ قال : استغفر الله . بل مبتاعا على سنة الله . ثم انصرف وتركني في حمّة من الغضب ، وكنت لم ابع شيئا يعد في يومي : فلما كان المغرب جعلت أتهيأ للانصراف . واني لمقبل على الباب اغلقه اذا هو مقبل الي . فقلت : لقد حل اجل الدَّيْن . فضحك وقال : لقضائه اتيت . موعدك العشاء بضيعتي . ثم تجاوزني في إسراع المهموم الملمة اشغاله . فقلت : لا ينتهي والله . ثم لويت .

وجاء العشاء فركبت فرسا لي يُحسن السير على ظلام الليل . وخرجت الى ضيعة ابي هريرة . وكانت بنجد لا تصلح لزرع ولا لغيره ، وفيها عِضاه كثيرة مبثوثة . فلما قاربتها القيت البصر فلم ار نورا فظننته اراد بي عبثا ومزاحا ، وهممت ان الوي الفرس ، فاذا هاتف يهتف بي . فقصدت اليه حتى وصلته . وتوضحت

المكان فاذا اشباح نفر جلوس وشيء كالهاوية عليه صخور مشرفة . وكان كهفا . وتكلم أبو هريرة فقال : ترجل . ففعلت واخذ فرسي شبح ودخل به الليل .. وقلت : لن تنتهي والله . ما هذا ؟ قال : انصت فستعلم الامر ما فيه . قلت : ومن هؤلاء ؟ قال : جماعة من الاخوان يسالون الظلام . وهاته ريحانة . واذا بجانبه امرأة مضطجعة على صخرة ، مطرقة كأنها تصلي وهي متعلقة به كالغصن بأصله . فلم أر الا الصبر .

ومضت ساعة لم نقل فيها شيئا . ثم تكلمت ريحانة فقالت : يثقل الكون اذا هم ان يكون . وتكلم آخر فقال : ولو لم يكن قبيل خلقه ثقيلا مرهقا لما خلق . فقال ابو هريرة : لقد كان حينئذ كالالحان قبل الضرب . وليس ابدع من الاوتار تجس . ثم سكتوا وحدثت نفسي انني وقعت في مصابين او سكاري . ومضت ساعة لم يعودوا فيها الى الكلام . وطال علي حتى كاد يذهب صبري . وبينا أنا كذلك اذ هتف مزمار همسا رقيقا نائيا كانه الذكرى تتجمع في اعماق النفس . ثم تعالى فاذا له صلصلة وزفير وانفلاق ودوي . وفيه الى ذلك تثن كأن الريح تحطه وتعليه . ثم جن واشتد وقامت اليه مزاهر ودفوف وصوت مغنية . فراحت جميعا في الظلام كالبرق . وكانت المغنية ريحانة . غنت :

أسـاف ونائلـــــه

أوقــدا جذواتـــي

أســاف ونائلـــه

وانفيــا عبراتـــي

وسكنت . فشد عليها المزمار والمزاهر واجتمعت الى ذلك اصوات نساء كثيرة قامت من ارجاء الضيعة فرددن غناءها . ثم عادت ريحانة تغني وتشد عليها المعازف والمغنيات :

ان نفســـي لحميـــم

رفـــرف اللحـــم عليـــه

ودعـــاهـــا يـــا سقيـــم

ملك العجز يديه
أسـاف ونائله
أوقدا جنواتي
أسـاف ونائله
وانفيا عبراتي
هذه الدنيا اناث
كلها تدعو الذكور
يسمع منها لهاث
بدؤه بدء الدهور
أسـاف ونائله ...
كم اردنا الروح فيضا
جارفا صخر السدود
واثرنا النفس غيضا
داويا مثل الرعود
أسـاف ونائله ...
وأكلنا الروح حسا
وانفجرنا للهوى
ثم خفنا منه مسا
فجعلناها هوا
أسـاف ونائله ....
انما الجبن بلايا
وسقام في سقام
ما لمائي في الهوايا
ذاهب مثل هيامي
غار فعلي في النوايا

كجبـــال في ظــلام

حتى استوفت شعرها ثم سكّن جميعا .

ثم لم تلبث ان اشتعلت خمسون او ستون مشعالا على مسافة في صف واحد قِبلنا . وكانت من الشموع التي اخذها مني ابو هريرة . ثم تقدم منهن ما ينيف على العشرين . فاذا عليها وجوه صفراء مختلجة كانها الموت وعليها كوضح الابتسام . ثم وقفن فخرجت من بينهن اثنتان وقدمتا الى شيء فاوقدتاه ، وكان حطبا مهيئا . وجعلتا تطوفان به كطوافنا بالكعبة . فلما زفر واحمر اندفعتا ترقصان كانما اخذهما دفق دافق . وكانتا ترقصان كألسنة النار ...



حديث الحس

حدثت ريحانة قالت :
مرض ابوهريرة حتى اشفقت عليه . وكنت لا ابرحه ساعة وابكي واوجع لالمه حتى كاني منه . فيهمس : ابكي ما لذّ لك البكاء . ويومي ان ضميني اليك . فاضمه ضما خفيفا . فيلقي بأنني كالحنين ويقول : وجعت ان لستِ في مثل علتي .
ثم ذهب عنه بعض مرضه فدخل الى الابلال . سالته : هل عاد لك من الصحة ما كان ذهب ؟ قال : انه قد استوى عندي ان تذهب او تبقى ، بل كدت اختار العلة .
يمرض الناس يا ريحانة فيطلبون الشفاء ، فيثقل المرض فيضني فيذهب سدى . وقد طلبت الشفاء مثلهم ساعة مرضي الاولى . ثم وجدت في علتي ما لم اجده في الصحة وتمت لي بها حياتي ، فخشيت ان تعاودني الصحة والاستقامة فاموت . كذا نحن . ولعله لا يبلغ العلة من الناس الا القليل . قلت : وهل في العلة غير الامحال وذهاب الماء يا حبيبي ؟ قال : لا ادري ، فقد يكون . وقد تكون العلل من محييات الحياة . بل انظري . قالت : وكان في صوته كصدى غيب بعيد . اني اجد في جسدي وهو عليل كيف يرق حتى كانه عود كلما جسسته أن ، وكيف تدق الحاسة وتحتد . وقد ذهبت لي والله ساعات وانا اقفو اثر الروح تنتقل من يدي الى راسي او منه الى صدري ، وتتردد على الاعضاء والقلب

والامعاء تردد الفجر ، فكاني اسبح في دمي يجري . ولذ عندي . فيلذعني الالم في كتفي او صدري او راسي فانا آكل حنظلاً لا كحنظل الناس . فيه مرارة وحموضة والوان مختلفة ونار تضطرم وتحسن في العين . فكأن مقدار القوة والحياة يزداد للعلة ، وكأن قرب الفناء خلاق .

ترين ؟ الا تكون الدنيا من خلق الالهة عند النزع يا ريحانة ؟

ثم تنفس فمد نفسه . ثم قال :

وبدت من زمن بعيد لو اني علقت بين السماء والارض ، أو أني جلست على قمة جبل وقد طلقته الارض فطار . فلم اصب نلك الا في علتي تفك الجسد وتميز الاوصال فيخف اللحم والدم فكاني في الخلد . انه لا تكون الحياة ابدع مما تكون بين العدم والكيان ، ولا اقرب من طمانينة السعيد .

قالت ريحانة : ثم ابتسم وسكن . فنظرت فاذا دموعه كقطر الندى على خده وقال : المني ان يكون نصف متاع الدنيا في حال لا يصيبها الانسان الا حينا بعد حين ، اذا سلم من كثافة الصحة . وضممته الي وضمني اليه . رحم الله أبا هريرة .

* * *

من حديث الحق والباطل :
الحياة عبث

حدث معن بن سليمان قال :

كنت أنا وأبو المدائن وأخي حرب نجتمع في بيت ابي هريرة كل يوم جمعة عند الظهر . فنتغدى ونتحدث ثم نخرج عنه فنذهب الى المسجد فنصلي .

فدخلنا عليه مرة فوجدناه بفناء بيته وقد بسط فيه فرشا خفيفا وجلس فاطرق وسجا . فسلمنا وقلنا وقد ادركنا فيه هما باطنا : فيم هذا الوجوم ؟ وكنا نعلمه غريب الاطوار ينصرف الى ما لا يخطر ببال . قال : اني فقدت السماء وارتد علي الهواء رصاصا ، ونظرت فكلّ نظري عن مدى العين وارتد البصر ظلاما . الا تجلسون ؟ فجلسنا وقلنا : هون عليك . فيم هذا الغم كله ؟ قال : ستسمعون خبرا غريبا ، هي أختي . رحمها الله ، وقد نكرتها .

ثم أمر بالطعام والنبيذ . فجاؤونا بمائدة عليها لحم مشوي ورطب ونبيذ كثير . فاصبنا من الطعام وصببنا من النبيذ ، وهو ممسك لا يمد يده الى رطب ولا شواء ويشرب ولا يقول شيئا . فلما فرغنا من الطعام ، وهو على وجومه كالممتليء بكاء لا ينفجر ، ثقل علينا وأعدانا من غمه . فقلنا : قلها ، قد ضقنا . قال : هل تعرفون للنار معنى ؟ قلنا : لا والله . قال : يرى الناس نيرانا كثيرة . ولكن اكثر الناس لا يفقهون . وللصاعقة ؟ ولظلمات القبر ؟ ولانهيار الصخور في الجبال ؟ وللرياح العاصفات هل تعلمون من معنى ؟ قلنا : كلا والله . اي شيء هذا الكلام ؟ قال :

كانت لي بين السادسة والتاسعة من عمري اخت لم تعش الا ثلاثا . وكنت احبها حب الشياطين للشر . وكانت ذات عاهات لا تدعها علة الا اصابتها اخرى . وكانت الى ذلك بكماء صماء اسال في ذلك فيقال : هو القضاء . وكنت كلما بكت بكاءها عطفتُ عليها وحففتها ، فهي بكماء حتى عن مطلق البكاء تريده فتتوجع ولا ينشرح لها . وكنت ارعاها فالهيها بما أتعلم من الالعاب مع اترابي في الحي . وكانت أمي تنكرها وتقول : هي من سِقط او عبث الاقدار . فلم تزل كذلك ثلاثا حتى نزلت بها يوما علة ذهبت بعينها ثم لم تلبث ان ذهبت بها ، فصحت وبكيت وندبت وطال عويلي . وحسبته الشيطان وقالوا : هو الله .

قال معن : فقلت : هذا ليس فيه ما يُحمل مثل غمك . فلا تجعل نفسك كالجبل يدعو الصاعقة فاذا وقعت عليه ارتج واصدى .

قال : لقد علمتني البكاء من القضاء . ثم صب فشرب ثم انفجر فبكى حتى رأينا الدموع في لحيته . ففرقنا له وقلنا جميعا : رحمها الله . وصب لنا فشربنا . وما زلنا كذلك نشار به ويبكي حتى جاء وقت الصلاة . فقلنا : نذهب فنصلي فيذهب ذلك بغمك . قال : دعوني . نصلي اولا نصلي ونسعد او نشقى هل ترون في من خير اوشر ؟ ثم قال : شر ما في الدنيا ان الحياة عبث . بل لا ادري لعله خير ما فيها .



حديث الحاجة

حدث ابو المدائن قال :

كان ابو هريرة سراق ارواح . وكان من المولعين بالصيد . يخرج فيرمي الرمية فيصيبها فيشرحها ويلقي بها . ولا ياتي بشيء من ذلك الى بيته . وكانت تاتي عليه ايام يقول فيها : لم حُرم ان يرمى الناس ؟ تقت والله ان أشق منهم فانظر ما في امخاخهم وقلوبهم واحشائهم . ثم يقول ويشير الى بعض عابري الطريق : انظر الى هذا . اني اراه سلبني حقي . يمر ولا اصيب مما في صدره شيئا . فأقول : وما احوجك يا ابا هريرة الى غيرك ؟ فيقول : لا ادري . اولعله ضيق محبس النفس الفرد . وقد احسد الصبيان حسدا شديدا . اتذكر صبانا ؟ كنت اشهد سباق الخيل . فلا ينتهي السابق الى القصب حتى اكون قد استفرغت في قلبي جهده وسرقت تعبه . وكنت الاعب اترابي في الحي . فنكون ملوكا كملوك الروم وطيورا وسباعا ورياحا عاصفة ونستوفي جميع ما خلق الله . فكان يبلغ بي الود والشوق مبلغه ، حتى لقد تشبهت يوما ببعض قطاع الطريق ، فتلبست به ، فلم اطلق اصحاب القافلة الا بعد ان عقلت رواحلهم وشددت عليهم حتى بكوا وعلت اصواتهم صياحا . ثم افقت فاذا انا قد مزقت ثياب اصحابي تمزيقا واوجعت اكثرهم ضربا وشكوني الى امهاتهم .

حديث المعدد

حدث كهلان قال :

لما ذهب اصحاب ابي هريرة والكلب خلونا . وكان لا يزال على بقية من مرضه تباطأت به . وكنت على رأسه لا ابرحه . فكان يحدثني حديث الميت يبعث كرها ويتوق الى موته . فسالته يوما في شانه بين الناس . فقال : عشت في الناس ثلاثين . فلم ار والله في واحدة منها الا ذئبا ينهش ذئبا او صاديا يشرب فيشتد صداه . ولا خير في الوحوش وفي النفوس الصوادي ... والارض في ذلك تنشىء وتعيد . ثم انطلق به الفكر وكان كلما انتشر في خواطره سجا كالبحر وشاع كالدهر وامتد . فكرهت ان اساله ولزمت صمتي حتى عاد اليه الكلام فقال : اتحب ان تسمع خبر هؤلاء ؟ قلت : نعم . وخبر من عرفت جميعا . قال :

منهم قوم هؤلاء الستة . وليسوا من شاني . إدخلتهم وكثيرا غيرهم جنات ووديانا فسجدوا لي . ثم نظرت فاذا النعمة ترشح بالشر والكنود . واذا هذا يفترش عرض ذاك وذاك مائل النظر الى امرأة أخيه وآخر يجيل يده كل ليلة في متاع جاره وذويه . ولم يلبثوا ان نسوني . القى الرجل منهم فيقول : من انت ؟ فاقول : ابو هريرة . فيقول : ومن ابو هريرة ؟ اقول : انا . يقول : ومن انت ؟ فهم في نميمة وخديعة وسرقات وغدر وجحود للنعمة وقلة وفاء . انما كان لي شان مع غيرهم .

ثم قال :

انه يا كهلان إذا كره المرء الحصر والقصر طلب كثرة اليم واشتاق العدد . خرجت اريدهم على البناء وان يتعاونوا ويطلبوا الشدة والباس . فقلت : زحيلكم فرار الجبان . الا تستحون ان تكونوا كالرياح . ثم نظرت فاذا هم في سنة شديدة متخاذلون متآكلون . وعلى ذلك يصلون ويدعون الاستسقاء وربهم ، ويسبحون اسماءه الحسنى . فقلت : ابن آدم يقتضي الرحمة . ودعوتهم الى جنات ووديان واعناب مهدلة من لؤلؤ ومرجان وتين وتفاح ورمان وماء مستراح وريحان . وقلت : كلوا واشربوا . فلما شبعوا قمت فقلت : اطابت لكم ؟ فقال قائلهم : يا ابا هريرة جعنا . وقالوا : دعانا داعي الرحيل . قلت : كأنهم مثلي ، لكن هيهات . ثم خرجت بهم الى صحراء بيداء سماؤها خلاء . فتاهوا بها وصرفوا بانيابهم واستحال الطعام فتآكلوا حتى ذهب اكثرهم وبقي نفر منهم صاحوا : يا ابا هريرة طعامنا زقوم . ولم يعمد احدهم لاخيه فياكله او كرهوه وقالوا : غيرك لا يغنيك من جوع . ثم عمدوا الى انفسهم فنهشوا ايديهم وارجلهم نهشا حتى ذهبت افواههم وانيابهم باجسادهم جميعا كالنار تاكل النار . ثم قامت هامهم فهي الى اليوم في التيه هناك يسمع لها كحفيف الحية وكنقيق الضفادع ليلا وتضور الذئاب نهارا . قلت وارتعدت : لا يجدون في فنائهم ما لم يجدوا في الحياة .

وقلت : انه لا يشبع من روحه الجوع .

ثم قلت : لعلي أجد في بعض الناس مكتفيا لا يزداد جوعه للطعام وصداه للشراب . فعدت فاقبلت على احياء اخرى ذليلة مستكينة عليها امير غُرِد مستبد . فدعوتهم الى نخل معاجيل كارعات وانهار جاريات وافنان وظلال واطلاق حال وخيرات جزال . فلما امرعوا قمت فقلت : اطابت لكم ؟ فصاحوا كلهم : قد امرعنا وطاب المقام . وتوسدوا الظلال فناموا فقلت : كذا انتم والله . لا تعرفون الا الاسلام . وانكرته فصحت : ايها الملا اسمعوا . اني

وجدتكم كالكلاب على جثة عفنة . تاكلونها نظرا وتتلمضون لها شفافا ولا يقربها احدكم الا ذهبت به انياب سيده او اخيه . وكنتم في شدة فاخرجتكم منها وجئت بكم هاته الجنات والوديان . فرايتكم عليها كمثل شيخ ذي وقار على يهودية عجوز كانها الاثم اريد فلم يدرك . تحدثه وتسقيه وفي عينيها رحمة الشيطان لآدم . تكتفون بالصدقات وتنامون . والنعمة لا تدوم بالعطاء . وما اها لنعمة من كان رخا . أفأنتم راضون .

هاته الارض نحن خلقناها . وهاته السماء نحن نصبنا عمادها فاقمناها . فهل ملكتم من خيراتها شيئا ؟ — لقد قالوا عنكم : ليس لهم الا جزلة من رغيف ولعبة تلهيهم كالصبيان . وحجبوا الشمس وفيها لكم نور به تهتدون . وامسكوا العيون وفيها لكم حياة . وذبحوا عنكم البقرة الصفراء . وقالوا : ما يولد منكم اليوم . غدا ناكل جهده ونمتص دمه . وما حرثتم اليوم . الى افواهنا من الساعة سنابله . وقالوا : نساؤكم لنا اماء واراوحكم مرعى ايها الضعفاء . ثم القوا لكم بعظام مقشرات هزال . فجثوتم على الرُّكب تصلون . وقلتم : طاعة وحمدا يا اولي الامر فينا . فحشروكم فالقوكم في الاصفاد . افانتم راضون ؟ اما آن ان ترتفعوا الى الشدة والباس ؟ الا توقدونها حمراء ليس يردها جان ولا انس ؟



حديث الجماعة والوحشة

حدث هشام بن حارثة عن ابي عبيدة قال :

افتقدنا أبا هريرة في بعض دهره امدا طويلا وانقطعت عنا اخباره ، حتى ساء ظننا بمصيره ، وقلنا : ان كانت ألمت به وفاته فيرحمه الله . وكنانتذاكره وترق قلوبنا ونجده في قرارة انفسنا انسا حاضرا وان ضاع شخصه . وكان كثيرا ما يقول لنا في خير ساعات عشرتنا وخال انبساطه للدنيا : انما بهذا الانس وهذه الالفة والمحبة صور الله الانس انسا ومتعة .

ومرت احقاب . ثم اذا هو عاد من غيبته الطويلة وتيهه في احياء العرب ، فطلع علينا اشعث مغبارا قاسي الوجه اليما ، حتى كدنا لا نعرفه . فعطفنا عليه نساله في امره وخافية ما ظهر لنا من بؤسه وياسه . فيقول احدنا : يا ابا هريرة من اين عليك كل هذا ؟ لقد امتلات قلوبنا شفقة عليك ورقة . فيصيح فينا ويلوي : اليكم عني يا ابناء النكر يا بني الانسان . ان شفقتكم لعنة . والله لقد عاشرت واستانست اشباهكم كثيرا ، وحسبت ان في العشرة سعة النفس واليمن والنعمة ، فما كان منه الا خلاء الخيبة ووحشة الوحدة . وارتدت الي نفسي ضيقة حسيرة . وضل عني كياني . وان ذلك لهو القنوط الاشقى : ان تغري عشرة الجماعة بظاهر البركة والطهر والكثرة . فتنكشف شرا ونجاسة وعقما وشقاوة وحدة . كاغراء الآل في قيعة

وكان يقول وهو يختلج كانما اخذته الغصة .
قال ابو عبيدة : ولم يزل ابو هريرة من ذلك العهد كالنافر من الناس . لم نر له قط بعدها عطفة . فكانه مات في باطنه بعض ما يكون به الانسان انسانا او عميت بصيرة . وكان ذلك اول انحداره الى نحبه .



حديث الغيبة تطلب فلا تدرك

« فقد عرفت ان سعادة النفس وكمالها ان تنتقش بحقائق الامور الالهية وتتحد بها حتى كأنها هي .... »

(الغزالي)

حدث مكين بن قيمة السعدي قال: حدثني هشام بن ابي صفرة الهذلي قال :

كانت ظلمة الهذلية من راهبات دير العذارى . تنصر ابوها في بعض عمره فنشأت على النصرانية . وكانت مع حر جمالها نفورا شرودا ، تابى الانوثة وتتصنع طبائع الرجال . فلما بلغت من السن ما يطغى فيه الدم ويفيض الماء ، تمردت فترهبت ودخلت دير العذارى . فذهب لها به ثلاث سنوات . فهي به اذ نزل بهم ابو هريرة . فاقام فيهم زمنا . ثم انصرفا معا وقد ارتدت وفجرت فأمعنت في ذلك . ولم يكن فجور كفجورها نية ومعنى . وكانت تقول : فجوري من الطاعة والاذعان . آمنت من يوم آمنت بالجسد وكفرت بالروح ثم أسنّت وفنيت . فاشترت تيسا ، وكانت تقول : ارتاح لنبيبه .

قال : قال : حدثتني ظلمة قالت :

أول عهدي بابي هريرة يوم طرق علينا بالدير . وكان قليلا من يطرق علينا لمنعة الجبل وشدة الدير وعسره وانفصاله عن الارض – قال : تريد دير العذارى. وهو الذي على الجبل فوق اثاية العرّج يراه الحاج في طريقهم ولا يبلغه الا النسور ، ولا يعلم احد كيف يرتقي اليه رهبانه ولا كيف ارتقى اليه ابو هريرة ولا ظلمة – قالت : وكنت صاحبة المفتاح . ففتحت له وسالته ما حاجته . قال : حاجة الفارّ الملتجيء . فحسبته متزهدا مترهبا . فقال واشار الى ظله : هروبي من هذا . فرايته يلوح الى ذنوب اعتلقت به . فقلت : ان كنت تطلب محوها فادخل . فدخل وتقدمته الى راس الدير .

ونحن بدهليز الدير اذ قال . وقد راى مسبحتي وتسبيحي : في كم تسبيحة تعمى العين ؟ وكنت نسيت النور وعيني لشدة ما كنت تصرفهما الى الغيب . فلما سمعت كلامه ثنيت بصري اليه . فاذا هو من أوضح وأضوى وأحسن من رأيت عينا . واذا عينه اشد ما رايت شوقا الى ما لا تراه غيرها من العيون . فكانها تنشئ مرئيها إنشاء وكأن روحه البصر . وكانت مشيته لا تكاد تستقيم كأن به خمرا او نصبا . فقلت : ما بك قال سؤال اطلب جوابه . أريد ان اعرف ايهما اصدق وجودا الله ام الشيطان . فقلت واستغفرت : استغفر ربك يا هذا وطهر نفسك من الدنيا . فصاح : لا تستغفري ولست بمستغفر . اريد ان اعرف أأنا خالق الله أم الله خالقي . وأردت ان امسكه عن كفره فأبى . وسرنا على شبيه بذلك حتى وقفت به عند راس الدير . فاخبرته بما كان من امره . فاقبل عليه يساله . فكان ابو هريرة ينظر الينا نظرة غريبة ولا يجيب . ثم قال : الرهبان اينسون ويموتون عن انفسهم ؟ قال الراس : نعم . ولقد نسي المسيح من قبلنا . ان كنت تطلب لدائك دواء فانت اخونا .

تم أحملنيه الرأس أعلمه وأروضه . فت به يرمي عن جسده ثياب اهل الدنيا . فوجدت لثيابه ريحا كريح الدنيا هزت نفسي . وكانما ادركها ابو هريرة مني فقال : الا تذكرك إبل الحي تكون ضباعا ؟ ممن انت ؟ هذا انفك يرمي . وكان كذلك . فكرهت ان اجيبه . ثم لبس الصوف ومكث فينا ستة اشهر يكد نفسه في رهبنتنا . فلم ينزل من الدير الا بي .

قالت ظلمة :

وكنت اختلي به كل ليلة في محراب اعلمه الاخلاص وأعلمه الادعية . فانا به اول ليلة اذ اقبل علي واخذ بيدي وقال : هل بلغت من الصلاح ما تحملين معه فتلدين ولا فحل ؟ فنفضت يده واقشعر دمي . قال : ان لم يكن فالصلوات اقل من الخمر جدوى . كيف تتخلصون من الاجساد والارواح ؟ قلت : نمزقها تمزيقا حتى ننسى الالم . واما الروح ففي الله والمسيح فناؤها . وكان من طريقتهم تعذيب الجسد حتى يفنى . ثم قمت فاتيته بسوط . فدفعه وقال : بيدي لا بهذا . وكنت اقول : دم المسيح ولحمه يمحوان ذنوب المذنبين . فيقول : الا سبيل الى تعليمي ما ينسي ؟ الا سبيل

الى غير المعقول ؟ علميني الحمل والولادة وسر توارث الارواح او غنيني وارحيني . اليس فيكم من يتقن صنع الاصوات تحضر الآلهة وتكسر الزمان وتشيع المحدود . فاقول : اللهم ارحمه . ثم علمته دعاء ليلته ودخلت غرفتي وبكيت الى فجري .

ولما أصبحنا جئت الصلاة فاذا أبو هريرة قد شق لحمه بظفره ، فهي على جسده كالخيوط الحمراء ، وصوفه مضرجة كجلد السليخة . ثم اختفى عنا وخلا بمحرابه . فبقي به شهرين او اكثر لا ينفذ اليه بصيص من النور . وكنت اذهب اليه بطعامه فلا يفتح لي باب محرابه ويقول : ضعيه على الباب . فاضعه وانصرف واعود اليه بعد ذلك فاذا هو يصوم اليومين والثلاثة لا يطعم ولا يشرب حتى خشيت عليه . وصرت بعده كالخاوية القفر وبكيت كثيرا . ثم لتكرر ذلك وتمرديت فخلوت اياما بمحرابي ، وبكيت شوقا ودعوت خشية ولعنت الشيطان وابا هريرة وقلت : لا يغلبني . ثم لم يلبث ان وهن عزمي وكرهت ليالي يذهب بسكونها ابو هريرة . فخرجت من معزلي . فكنت اجيء باب محرابه في جوف الليل واقنع بتنفسه اسمعه كنفس الريح الحيري او بنبرات بكائه اسمعها كالطلو فابكي ويخفق قلبي ثم لا يطيب منامي .

ثم خرج الينا فجانبته . وكان كالذاهب البال ، لا يكلم احدا ولا يسال عن احد ، ويكثر من الجلوس في مقبرة الدير . ولم اصبر عنه فاتيته ، فقال : هل نسيتني ؟ قلت : لم استطع . قال : وتطمعين بالموت . قلت : وهل انستك العزلة ؟ فابتسم وقال فاذا ابتسامته في وجهه الناحل الشاحب كالفجر الطاهر : لا ادري . لعلي نسيت الالم . اما اللذة فلا ادري . فكانه اثبت في سهما . فالقيت بنفسي وكدت اقع على وجهي ، لولا انه اقامني واحتملني الى محرابي ، وقد غلبت غلبة لم يكن لي بعدها شدة ولا عزم . فلما افقت اذا هو على راسي يقول : كذا المرأة لا تكون الا واهنا مقطاع الجهد . فاذا همت او اشتدت بعض يوم اذا هي رماد . ثم بقينا اياما بمحرابي ، والدير يحسبنا نتعبد ونبتهل وانما كنا في الشيطان . وكان ابو هريرة يقول : الآن علمت وعلمت ان اللذة لا تغلب . فسالته : او كانت في منذ الصغر ؟ قال : نعم وفي . قلت : وقد كرهتها لما فيها من تواضع الى امثالك

من الخلق . وكنت من ايام تيقظي الى محاسني ونعومة لحمي انفع الجود بها على الرجال والوقوع تحتهم والاستكانة اليهم . فكنت اتناساها وانفيها حتى جاء ابوهريرة وقال : انه لا يتناسى الجسد انسان الا اكلته الخيالات . وسألني : هل وجدت في تعبدك امتلاء ؟ اذ ذاك آمنت بانسانيتي ووجدت من حياتي ملأ لم اجده قبله واتسعت حتى علوت حياتي ، وكنت خاوية نليلة مستكينة مستضعفة .

وكانت لنا ايام .



حديث البعث الآخر

قال ابو المدائن :

... مضت لنا ساعة ثم اذا هاتف يهتف شعرا في صوت ما سمعت أروع منه :

أنـــا الحــق يناديــك
أ نــا الحــب يناغيــك
أنــا الشــوق طغـــى فيك
تعــال علــى الدهـــر
تســام الــي سحـــري
فأكشــف عــن ستـــري
ضيــا كضـــيـا الفجـــر
يــرويــك مـــن ســـري
أنــا الحـــق طغـــى فيك
أنـــا الحــب يناغيـــك
أنـــا الشـــوق يناديـــك
حبيبـــي حبيـــب الابـــد
تخلص وهيـــا نصـــد
علـــــوم الغيـــــب
خفـــايـــا الـــــرب
وقـــم كالـــرمـــاح
اذا مــــا علــــت
مهـــب الــــريـــاح
تعـــالي الجبـــل
وطـــر يـــا جنـــاح

فهــــا قــــد بـــدت
شـــــــــــواطـــي الازل

فاسمع ابا هريرة يغني وكانه النار اتقدت او الله ينادي في الكون بالبعث :

أيــــا حــق لبيـــك
تباركت لبيك
حبيبي جلاليك
انا الآن اليك
تعـــال فـــؤادي
فهـــذي السمــــاء
بـــاوج العـــلاء
لروحـــي تنـــادي
وهـــذا خليلـــي
يضـــيء سنـــاه
ضيـــاء السمـــاء
ينيـــر سبيلـــي

ثم سكت فاذا انا اسمعه يقول : هذا ما كنت اطلب . اتذكر يا ابا المدائن يوم وقفت عليك بدكانك اشتري عنك شيئا فجاءني من اخبرني بمريم ولدت ؟ ... يعني واحدته وقد ماتت صغيرة – ولم يكد يتم كلامه حتى حث فرسه وارسله كالريح ، فاسمعُ حوافره على الصخور كالرعد . وغاب عني في الليل . فلم تمض هنيهة حتى سمعت صخورا هاوية وصهيل الم وصيحة كصيحة الفرح تملا الوادي واقشعر لها جلدي ، فكأن الامر مادبة شياطين . ثم سكن كل شيء وناديت فلم يجبني احد . فلزمت مكاني الى الصباح . فلما اصبحت نظرت فاذا انا على قمة جبل يكاد يبلغ السماء ، واذا دم على الصخر ، واذا تحتي هاوية يقصر عنها مدى العين .
رحم الله ابا هريرة . لقد كان أعظم من الحياة .

مختارات من « تأصيل لكيان »

الأدب مأساة أو لا يكون

« ان للانسان في مجاهدة الهوى ثلاث احوال : الاولى ان يغلبه الهوى ولا يستطيع له خلافا وهو حال اكثر الخلق ، والثانية ان يكون الحرب بينهما سجالا .... فهذا الرجل من المجاهدين ، فان اخترمته المنية في هذا الحال فهو من الشهداء لانه مشغول بامتثال قول النبي صلى الله عليه وسلم : جاهدوا اهواءكم كما تجاهدون اعداءكم . والثالثة ان يغلب هواه .... وهذا هو الملك الكبير والنعيم الحاضر والحرية التامة والخلاص من الرق » .

— الغزالي —

الأدب مأساة أو لا يكون . مأساة الانسان يتردد بين الالوهية والحيوانية ، وتزف به في أودية الوجود عواصف آلام العجز والشعور بالعجز : امام القضاء . امام الموت . امام الحياة . امام الغيب . امام الآلهة . امام نفسه ....

على هذا النمط فهمت الأدب جميع الامم التي خلد التاريخ آدابها بين الآداب . من الهند الى يونان ، ومن العرب الى الافرنج . وعلى هذا النمط بدأ اهل الشرق العربي يفهمون الادب ، ولطالما تلهوا عنه بجعجعة الالفاظ وتصفيق القوافي والاوزان ، والعاب محسنات البديع والبيان . وقديما كان فيهم ابن المقفع الذي ترجم كليلة ودمنة بما فيه من روعة المأساة الانسانية وما يملأ جوانبه من صرخات الحيرة البشرية . وكان فيهم ابو نواس الذي قضى كامل حياته في مرارة السكر وتوقع الموت منشدا في شعره انشودة الانسان « تلعب به الاقدار » . وكان فيهم ابو العتاهية وموته ،

والجاحظ وفكره ، وابن الرومي وطبيعته ، والمتنبي وقوتــه ، والغزالي وآلام معرفته ، والمعري وعواصفه الهول ، وابن خلدون ومقدمته ... وجميعهم فياض بادخل معاني الانسانية في رواية الوجود ولغزه .

قديما كان الشرق من هؤلاء وامثالهم مملوءا ، ولا من هذه المخلوقات الجامــدة الانفس ، الصمــاء الافئــدة ، العميــاء البصائر ، التي شاءت عصور الانحطاط ان تفرضها عليــه فرضا ، والتي لا يزال الكثير من الشرقيين وغير الشرقيين يحصرونه فيها حصرا . بل اسال ذلك المستشرق الكبير الذي قال : « ان الادب العربي أدب « كليشيات » جميلة ، لماذا لم ينظر الى ما وراء عصور الانحطاط واهل عصور الانحطاط ؟

والحق ان الذنب كله ذنبنا . فما ضل سبل ابن المقفع وبيدبا والمتنبي والمعري الا نحن . ولا عمي عن لب ابي العتاهية وابي نواس والغزالي الا نحن . ولا مسخ هؤلاء وغيرهم فهما الا نحن . ومع ذلك فكتاب الاغاني بين ايدينا منذ قرون يكاد ان يصرخ صراخا في كل صحيفة من صحائفه بان الادب قرارته نفس الانسان ، ومجهره قلب الانسان ، وظاهره وباطنه ولفظه ومعناه وصورته وروحه كلها معقودة باعماق روح الانسان . ونحن لا نزال نستنجد بالعسكري والسكاكي وغيرهما لنفهم الادب ، ولا نزال نتخذه ملهاة لساعات الفراغ ونستخف بجلاله استخفافا . او نحن ندعي التجديد فنستنجد بـ « تان » او « برونتيار » او « سانت بوف » او غيرهم من نقاد الادب بالغرب لفهم الادب العربي والغوص على جوهره ، فاذا نحن نخرج من ذلك في ثوب مستعار بما لا يفضل فهم ابي الفرج الاصبهاني للكثير من شعرائنا في القليل ولا الكثير .

فلو ان الله هداك الى ملابسة الادب القديم ، فقرأت هذا الخبر ، لعلمت انه لا يقتضي من وقتك الثمين ـ والثمين جدا ـ الا ربع ساعة على اكبر تقدير ، ولرايت حينذاك كيف يكشف لك ابو

الفرج عن سر نفسية كاملة بصحيفة واحدة . فهذا الخبر الوجيز يتلخص بكل بساطة في ان ابا العتاهية عزم على ضرب من « الرحيل » ، فجاء صديقه مخارقا المغني ، وسأله ان يهبه يوما فبذل مخارق له ذلك ، وجاء بيت ابي العتاهية من غده ، فاذا مائدة وطعام وفاكهة وريحان والوان من الانبذة . ثم اذا ابو العتاهية يصب فيسقي صاحبه ويشرب ويقول : غنني في قولي كذا ، فيغنيه مخارق ، ولا يزال يغنيه وهو يشرب ويبكي الى ان صارت العتمة .

ثم يقوم أبو العتاهية فيكسر النبيذ وآلته والملاهي ، ويخرج ما كان من ذلك في بيته فيكسره ويصب النبيذ ، ثم يغسل ويلبس ثيابا بيضا من صوف ، ثم يعانق صديقه وهو يبكي ويسلم عليه سلام الفراق لالقاء بعده . وينصرف مخارق وهو لا يفهم شيئا مما صنع ابو العتاهية ظانا انها بعض حماقاته . ثم يزوره بعد ذلك بمدة فيجده في زي وحالة غريبة . ثم يبلغه انه انتصب حجاما . ثم لا يكون بينهما لقاء ، الى ان يبلغ مخارقا ان ابا العتاهية مريض وانه اشتهى ان يغنيه ، فيجيء مخارق ويستاذن . فيخرج اليه رسول ابي العتاهية يقول : « ان دخلت الي جددت لي حزنا وتاقت نفسي من سماعك الى ما قد غلبتها عليه ، وانا استودعك الله واعتذر اليك من ترك الالتقاء » ، ويكون ذلك آخر عهد مخارق به . (1) .

على هذا النمط من الاقتصاد والاحتشام يصف لك ابو الفرج ابا العتاهية في تنسكه وزهده ، وبمثل هذا الخبر البسيط يقص عليك اروع ماساة انسانية يمكن ان تجري في باطن نفس شاعر كأبي العتاهية . وتقرأ هذا الخبر ،، وتعود بالذاكرة الى كل ما تعلم عن حياة ابي العتاهية قبل تزهده ، وكل ما في شعره من تلميحات غامضة او واضحة الى الحيرة والالم والياس ، فاذا انت تقف بفضل الاغاني على سر هذه النفس الحيري المعذبة ، وتدرك ان ابا العتاهية هذا لم يتزهد حماقة وبلادة طبع ، ولم يتزهد التزهد الذي

(1) النص الكامل للخبر في الاغاني ج 4 ص 107 ـــ 109 . طبعة دار الكتب . القاهرة 1950 .

يفهمه الناس انقطاعا وجمود نفس . بل تزهد لانه كان يألم جميع آلام « الفاقة الكبرى » ولانه انتهى ــ بعد ان أصاب من دهره كل ما اشتهى ــ الى الجوع الاكبر الذي ينتهي اليه المرء اذا هو لم يوقف نفسه عند حدها وتركها تتقلب من غاية الى غاية الى ما لا نهاية له . وذلك . ما عبر عنه اوضح تعبير بقوله :

تبــــارك مـــــن لا يملـــك الملــك غيــره
متــى تنقضــي حـــاجـــات مـن ليس يشبــع
وأي امـــرىء في غايـــة ليس نفســـــــه
الى غايـــة اخــــرى سواهـــــا تطلــع

وبهذا تدرك عندئذ ما كان في نفس ابي العتاهية من تقطع دام عندما عزم على الخروج من حال الانطلاق الحر في الاستمتاع بالملذات واشباع الهوى الى حال الضبط والسيطرة على النفس وقهرها وصدها عن متع الحياة ، تلك التي يقول فيها :

وانـــي لمـــن يكـــره الموت والبلـــى
ويعجبه ريـــح الحياة وطيبهـــــا

تدرك هذا التقطع الدامي ، وتفهم السر في بكاء ابي العتاهية وشربه قبيل تزهده ، والسر في هذا الحزن الذي خاف ان يجدده له دخول مخارق عليه ، وفي « تركه » الالتقاء بصديقه وهو مشرف على مفارقة الدنيا ، ولا تستغرب ان يكون هذا الرجل ذاك الانسان المحتار والشاعر القائل :

طلبـــت المستقـــــــر بكـــل ارض
فلــــم أر لي بـــارض مستقـــــــرا

والشاك المحتاج الى اليقين القائل :

خــذ من يقينك ما تجلــو الظنون به
وان بــدا لــك امــــر مشكل فـــدع
قد يصبح المـــرء فيما ليس يدركه
مملــق البـــال بين الياس والطمع

ولا تستغرب ان تكون نفسه انطوت طيلة سني تزهده الثلاثين

على ما يشير اليه قوله :

لكـل امـرىء رأيـان رأي يكفه
عن الشيء احيانـا ورأي ينازع

اي على جهاد عتيد وخصومة ثابتة لنفسه وهواها ، في حين تبقى حية متاججة قائمة النار فيه بكل ما فيها من غرائز واهواء وشهوات ، الى يوم يمرض مرضه الاخير فتعاوده شهوة سماع الغناء وتضعف ارادته امام رجعة الهوى ويحضر مخارق ، ولكنه وهو على فراش موته ـ يجد في صدره فؤادا يقوى على المقاومة والصراع ، حتى في تلك اللحظة القاتمة الضعيفة البائسة ، فيملك نفسه ويترك السماع ولقاء صديقه ويكظم الالم ويموت ...

واذن ، فأبو العتاهية ليس شاعر الزهد ولا شاعر الحكم الذي يحصر قيمته الناس في مثل هذه الحكم « الفقيهية » الساذجة :

ـ من يعش يكبر ومن يكبر يمت ..
ـ من سالم الناس سلم ومن شاتم الناس شتم .
ـ ان القليل بالقليل يكثر ، ان الصفاء بالقذى ليكدر .

ليس ابو العتاهية هذا او هو لا يهمنا منه هذا . بل ابو العتاهية كما يراه ويرينا اياه صاحب الاغاني هو هذه الشخصية العتيدة التي عرفت طيلة ثلاثين سنة من العمر ، ماساة الصراع القاتل بين النفس وهواها وبين صاحب النفس يغالبها لانه يرى ان اطلاق العنان لها لا يعقب الا جوعا ومسغبة وبؤسا بعد بؤس ، فيركن الى ضبط النفس بقيد التزهد والقناعة ... عساه ان يصيب بامتلاك زمامها بعض ما لم يصبه في جال اطلاقها من حرية وسعادة وطمانينة وقرار .

وهكذا يتصل أبو العتاهية ببرزويه الذي قاسى هو ايضا من نفسه ما قاسى الى ان انتهى به الامر الى ان قال : « وجينئذ صار امري الى الرضى بحالي واصلاح ما استطعت اصلاحه من عملي لعلي ان اصادف باقي ايامي زمانا اصيب فيه دليلا على هداي وسلطانا على نفسي ... »

وهكذا يرجع بك أبو العتاهية وتزهده ـ لا إلى معاني الجمود النفساني والوعظ القروي والحكم العامية ـ بل الى معنى مأساة النفس الطموح الطموع ، والتطلع لا يني ولا يقف . والجوع الذي لا يسكن ، والظمأ الذي لا يشفى ، الى وجه من وجوه المأساة البشرية العامة ... الى الأدب ...

والأدب مأساة أو لا يكون ...

مجلة « المباحث » عدد 12 من السلسلة الجديدة مارس 1945 .

و « تاصيلا لكيان » ص 21 ـ 28 من فصل « أبو العتاهية كما يراه صاحب الأغاني » .

* * *

أبو العلاء فيما بينك وبين نفسك

يمر عليك ابو العلاء – كما مر منذ قرون على اجيال قبلك واجيال – فزاعة هولا ، هداما للذات الوجود ، مذهابا بطمانينة الروح ، مدعاة لادهى ما تخشى من دواهي الحيرة والاشكال . فالعنه ان شئت وصحت لك لعنة المتهم بالكفر والالحاد ، وانفر عنه ان كنت تخشى على عشاك بهر الضوء والنور ، ونكب عنه ان خفت على رونق سعادتك قتام البؤس والياس ، واشتد عليه ما قدرت ان تشتد ، وجانبه وادفعه وتطهر منه وصل ، وكن عليه نقمة وعنه اعراضا وله كرها وابغاضا .... فلن تفوته ولن تتخلص منه . بل انت على ذلك كله في بعض ايامك لتجده احب اليك من اللذة واروح عليك من الطمانينة وابرد عندك من برد اليقين .

ذلك ان نسبة قريبة بينه وبين بعض نفسك تضطرك اليه ، وصدى له بعيدا في قرارة قلبك يرغمك عليه ، وانك له مدين بانه يسعدك على ان تكون .

فانت حي مؤمن بالحياة او محتاج الى الايمان بالحياة . تقتضي الايمان بدمك ولحمك ، وتقتضيه بحرفتك وشغلك ، وتقتضيه بتفكيرك وعقلك وآرائك ودينك . لا مكان فيك للعدم ولا مجال فيك للموت . قد تبوأت مكانك من ضرورية الكون وانتصبت حلقة في سلسلة حتم وقلت : أنا الحي ، أنا الحياة . ثم اشتملك بعد نظام الكيان نظام الحياة الدنيا . فانت في بنيان مرصوص لا يتصدع ،

وضمن ترتيب محكم لا يتشوش ، فمنزلتك راضية مرضية وحتم « قاهر » وسنة الله .

ويكاد ان يكمل لك رضاك واستسلامك ، وان يقر لك قرارك ، لولا ان الغزالي يهجس في قلبك : « ان النفس بالطبع متمردة عن الطاعات مستعصية عن العبودية » (الاحياء) . فاذا انت تجد في بعض ايامك انصرافا عن الرضى ، ونزعة الى الغضب والثورة ، وتوقا الى التشويش ، وحاجة الى الجموح والجحود والنفي . واي سكون لا يحوج الى الحركة ؟ واي قرار لا يدعو الى القلق ؟ واي جمود لا يقضي النمو ؟ واي عدم لا يوجب الحياة ؟ بل تجسس قلبك ودقاته وسكناته ، وانظر من حياتك الى فترات الهدوء والرفق والسكينة واللين ، كيف تقتضي فترات هوجا من شدة ونشاط وباس وقسوة .

وكذا انت التناقض والتراوح والتردد : ترتد من الخير الى الشر ومن الشر الى الخير ، ومن التقوى الى الذنب ومن الذنب الى التقوى : فاذا لك ايام خمر ولهو ، بعدها الصلاة والتوبة ، وعونك فيها التستر والخفية ، واذا لك ايام زور وكذب ، بعدها الصدق ، وعونك فيها الكفارة . ثم اذا لك احوال رياء يغطي عليها وينسيها صادق اللهجة ، وايام ضعف وخوف تثني عليها بايام الشجاعة والقوة . ثم اذا لك ثني ايمانك ورضاك واذعانك ايام تساؤل وشك وحيرة ...

ولابد ان يقيح قرحك ، ولابد ان تلفظ قيحك . فابو نواس معالج خمرك ، وابو العلاء معالج جبنك وريائك وبهتانك وشكك وياسك ، تقرؤه فيكفيك المؤونة اذا هو اشتد وصدق ويئس واحتار وشك فاحتمل عنك عبئك . فانت لا تضحي للشجاعة ولا تضحي لصدق اللهجة ولا تضحي للشك والحيرة ولا للياس والشقوة ، الا بقدر ما يجهد المفكر فكره ويحرك عقله . وانت في ذلك كله تجتزىء عن ماساتك بماساة غيرك ، وتكتفي بماساة لا باس عليك منها ، هي من فكرك تصور محض وصورة خدعة . لانك حي والحياة تقتضي

الافتراء والجبن . وواجب المحافظة على حياتك يقتضي ان تكذب على نفسك بنفسك ، وان تكون في كذبة متوسطا بابي العلاء وصدقه . وفي جبنك متنكرا بشدة ابي الـلاء وباسه .

ولو احببت ابا العلاء واحترمته لاردت نفسا كنفسه ، ولو سموت اليه واعظمته لطلبت صدقا كصدقه وثباتا كثباته وباسه .

ولكنك بحياتك سعيد فرح راض ، ولكل شيء في حياتك لا حظ موضعا وحكمة . ومن كل شيء ساكن مطمئن الى ما تواضع عليه الناس من معنى . وانت كاشخاص « دستيوفسكي » خاضع متواضع ، لا ترى الايمان الا في الاذعان ولا القرب من الله الا في الانحطاط الى أسفل درجات الانسانية ، حتى كان الانفة من التذلل والاستسلام ، وكان الترفع والثورة ، طغيان واشراك وعتو وتأله . وما طغى ابو العلاء ولا تأله ، وان هو ترفع وأنف واستعصى ، وانما ادرك ان الحياة رياء وزور وجبن ، والاحياء كذلك لا يقوون على مواجهة الحق ، ويرون صدق العزم في البحث عن الحقيقة الحادا وكفرا . فاذا ثبتوا لذلك ساعة اذاهم على إعقابهم مرتدون وهم يستغفرون ، كان الله يبغض الاحرار ولا يحب الا العبيد المتذللين ، او كان طلب الحقيقة مميت . فاذا هم قصدوا اليه بعض عشية او ضحاها اذا هم كالقصبة في الريح من الرعب يرتجفون .

وما كان في نفس ابي العلاء موضع للتذلل ولا الخوف ولا الزور . بل كان الذي يفعم نفسه ان عظمة الانسان في انفته وعزة نفسه وصدقه والقوة على صدقه .

فهو هو في انفته وعزة نفسه وقد دخل بغداد ثم خرج عنها وهو يقول :

ولا أثقـل في جـاه ولا نسـب
ولو غـدوت اخا عـدم وإدقـاع

وهو هو في ثورته واستعصائه مجابها عظماء دهره صادعا فيهم بجورهم قائلا :

مل المقــام فكــم اعاشــر امــة
امــرت بغيــر صلاحهــا امــراؤها
ظلموا الرعيــة واستجازوا كيدهــا
فعــدوا مصالحهـــا وهــم اجــراؤها

أو قائلا :

قالـــوا فلان جيــــد لصديقــــه
لا يكذبوا مــا في البريــة جيــد
فاميرهـــم نــال الامارة بالخنا
وتقيهــم بصـــــلاتــــه متصيــــــد

وهو القائل :

يسوســون الأمـــور بغيـــر عقـــل
فينفــذ امرهــــم ويقــال ساســة
فاف مــن الحيـــاة وأف منـــي
ومــن زمـــن رئاستـــه خساســة

والقائل ايضا

ساس الانام شياطين مسلطــــة
في كل مصر من الوالين شيطان

وانت تقرأ هذا كله حين تشتد فيك نزعة الى النكير على ما ترى في احوال البشر من ظلم وجور ، وعلى ما يبدو لك في الناس من فساد طبيعة . ولكنك لا تقوى انت على اشباع نزعتك هذه بالنكير الفعلي . فتسرق لها لفظ ابي العلاء ، ويبقى النكير نية مكنونة فيك ، وتقول وتفرح :

غــار فعلـــي فـــي النوايــــا
كجبــــــال فـــــي ظـــــــلام

وتسكن نزعتك وتهدأ ، وتعود انت الى حياة لك وادعة يفعمها الذل والمسكنة ، وتلتجىء فيها غريزة الانفة الى زوايا المكاتب ومسروق الاشباع .

وما حاجتك بعد كل حساب ــ وانت تخشى على حياتك ان يفوتها هناؤها ــ ما حاجتك الى مسؤوليات الانكار وقد جعلت لك عنها مندوحة في المنافقة والرياء ؟ ــ تقول انك قد تكره وتحتقر في ذلك نفسك . فاذا وجدت منه مضاضة في بعض ايامك ، وقذف في قلبك شوق الى الصفاء والطهر ، فابو العلاء بين يديك وصدق ابي العلاء فيه ما يطهر نفسك ونفوس الآلاف مثلك . ولا عناء عليك في ذلك الا ان تقرأ قوله :

تستروا بامـــور في ديانتهـــــم
وانمـــا دينهم ديـن الزناديـــق

أو قولـه:

انمـــا هــذه المذاهــب اسبـــا
ب الى جــذب الدنيـــا الى الرؤساء

أو قوله :

سبح وصــل وطـف بمكـــة زائــرا
سبعين لا سبعا فلســـت بناسك
جهل الديانة من اذا عرضت لــه
اطماعه لــم يلـف بالمتماسك

على انك ان جاريت ابا العلاء في بعض اقواله هذه ، وتطهرت مما فيك من نفاق ورياء ، ودفعت عن نفسك وصمة ذلك بانكار ما في غيرك من رياء ونفاق ، فهل انت ثابت على ذلك الا بعض اوقاتك ؟ ألا تأخذك خشية الدوار احيانا ؟ الا يوقفك عند حدك خوفك ان تفتضح الحياة والبشرية جمعاء ، وان تصبح لك عراء وان تنكشف العورة ؟ الا يجيئـك الجبـن ويعسر عليـك الحـق والصدق ؟ .. وتذكر مآل الصدق والحق ، وتنكر قصة الغزالي وتيهه ، وتتصور حياة ابي العلاء ومرارة الحقيقة عليه . وتكاد ان تستغيث وتبادر فتلوي الى حياة الرياء والكذب .

ولكنك مع ذلك تجد في نفسك حسرة على العجز عن الصدق المطلق ، وتجد الصدق يستهويك ويغريك ويودك ان تكون من

المنتسبين اليه . فاذا انت تعطف الى ابي العلاء وتقول : انه قد طلب الحقيقة وكان صادق العزم فيها . وتدور رواية الصدق في طلب الحقيقة والثبات لمرارة الحقيقة ، رواية الشك واليأس ، على مسرح فكرك . وتتلو قول ابي العلاء :

اما الجسوم فللتراب مآلها
وعييت بالارواح أنى تسلك

وقوله :

اما اليقين فلا يقين وانما
أقصى اجتهادي ان اظن واحدسا

وقوله :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة
وحق لسكان البسيطة ان يبكوا
يحطمنا صرف الزمان كاننا
زجاج ولكن لا يعاد له سبك

وقوله :

أيعيث ضوء الصبح ناظر مدلج
أم نحن اجمع في ظلام سرمد ؟

وتطالع رسالة الغفران فاذا تني كل سطر منها : اليس ان نعيم الجنة بأوزها وبشرها البشري وقصورها وحورها ومجالس لهوها كنعيم الدنيا هذا الكذاب الزائف ؟

ويوسوس لك الشيطان كما وسوس لابي العلاء : « لعل كل شيء كذب وخدعة ؟ ولعل كل شيء رياء وزيف كصلاح الامراء وتقوى المتقين وجودة الاصدقاء ؟ ولعل اعمال الانسان وآراءه ومعتقداته وآماله وجناته وحياته ؟ ..... ولعل الكيان نفسه ؟ »

وتتقدم خطوة اخرى فتقع في جحيم الصدق والحقيقة ، فاذا الحياة لا تكتفي ان تكون عبثا وخدعة ، بل اذا هي جناية . ويقوم لعينك قبر ابي العلاء عليه :

هذا جناه ابي علي وما جنيت على احد [1]

وتنتهي الرواية على مسرح فكرك ، وقد وقفت على باب الغيب والابد . وتخرج بعد ان تكون تلوث تلك الابيات ودارت في خلدك هذه الافكار ، فاذا انت قد افرج عنك وذهبت عنك الالفاظ وتصورات الفكر بجميع هذه المشكلات ، وكانك قد صدقت حقا في طلب حلها ، وكانك قد ثبت حقا لمرارة ما تدعو اليه من شك وحيرة وياس مميت . لكن ، لا عليك من ذلك باس . فهل سمعت قط ان احدا من نظارة المسرح احب لحب مجنون ليلى او جن لجنونه او مات لموته ؟ وانما شان المجنون ان يحب وان يجن وان يموت ، وشان المعري ان يفكر ويصدق في طلب الحقيقة وان يتالم جميع آلام ماساته الروحية ، وشانك انت شان النظارة ينظرون .

ولو أحببت أبا العلاء واحترمته لأردت نفسا كنفسه ، ولو سموت اليه واعظمته لطلبت صدقا كصدقه وثباتا كثباته وبأسه . ولكنك قد لا تعدو ان تحتفل بذكرى مولده وان تردد اسمه ... لهوا منك ولغوا ولا عقبى .

مجلة « المباحث » عدد 21 من السلسلة الجديدة ـ ديسمبر 1945

و « تاصيلا لكيان » ص 30 ـ 35

---

(1) هكذا جاء في الرواية المتواترة . ولكن الذي وقفت عليه بنفسي اخيرا ، اثناء زيارتي لقبر الشاعر في معرة النعمان هو البيت الآتي مرسوما على الرخام في اعلى جدار قبالة القبر :

فـــلا هطلـــت علي ولا بارضـــي .
سحائـــب ليـس تنتظـــم البـــلاد

المسعدي يحلل روايته
« حدث أبو هريرة قال ... »

اذا شئتم ان تفهموا ما كان الغرض من تأليف « السد » او « مولد النسيان » او « حدث أبو هريرة قال ... » عند مؤلفها ، فلتتذكروا اولا ان كل ما يكتب الكاتب يكون بضرورة باطنة ، اي باقتضاء مركز في صميم ذاته ، يفرض على الانسان ان ينشىء كيانه فينحت مفهومه اولا ويسيطر عليه بالفكر والوعي الواضح ثانيا . خذوا مقدمتي « حدث ابوهريرة قال ... » و « مولد االنسيان » تجدوا فيهما معا خلاصة ما اشرت اليه هنا . فقد كتبت في مقدمة « حدث ابوهريرة قال ... » : « هذا كتاب كتبته منذ احقاب حين كنت اروم ان افتح لي مسلكا الى كياني الانساني واقضي حجا الى موطني المفقود : وفاء حنين الى الذات الجوهر الفرد ، وتوليد للعشرة من معدن الوحشة ، واشهاد على ان تاج الكيان مركب من العشق والفناء . وقد طرحته منذ ذلك العهد طرح الحية جلدها . ثم عدت اليه بعد ان شاعت مني في ابعاد العمر كل مهجة ، فاذا هو يحدثني بحديثه اذ ذاك ، صدى مني الي ، ككل حي لا يزال : الحياة كون واستحالة وماساة ، فاذا هي ارتدت ظاهرة وقرارا ورضى ، فهي الخسران ولعنة على الزائفين . ولئن اخرجته اليوم الى الناس ، واحييته كما كان احياني ، فعلى امل

— مجلة « الحياة الثقافية » الاعداد 5و6و7 سنة 1976 —
و « تأصيلا لكيان » ص ...

ان يكون لدى غيري — ان استطاع — ما به تدربت على ان اكون . وان كل كيان لجهد وكسب منحوت . »

وفي هذا المعنى أو على هذا الوجه يكون الكتاب هو قصة التجربة الوجودية او مغامرة الكيان الانساني ، قصة المسيرة الطويلة التي هي مسيرة الحي في سبيل الاضطلاع بمسؤولية الوجود الانساني . لان الانسان ليس شيئا معطى مقررا حاصلا من البدء كما في معطيات الحسابيات ، بل هو كائن يتكون تدريجيا ، ولا يزال في حال صيرورة مستمرة وتكون متواصل من اول لحظة من الحياة الى آخر ثانية منها . وانتم ايها الطلبة الذين بلا شك درستم العلوم الصحيحة ، تعلمون أن خلايا الجسد لا تزال مدى الحياة تتجدد ، يموت منها ما يموت ويزول ، وتنشأ خلايا اخرى تعوض ما مات وزال .

على هذا المعنى ينبغي ان تفهموا ان الكيان البشري صيرورة مطلقة لا تقف ولا تني ، تبتدىء ولا تنتهي ، ممتدة طورا فطورا ، حتى الممات ، فانتم مثلا في هذه الفترة من حياتكم تتدربون على الكيان وعلى الوجود وعلى الانسانية بتقليد غيركم والاخذ عنهم ، والسير على الدروب التي يدلكم عليها غيركم من الادباء ومن الشعراء ومن كبار الكتاب والمفكرين وحتى آبائكم واساتذتكم ، الذين يهدونكم جميعا الى ما به تقيمون بنية انسانيتكم وتربون احساسكم وعواطفكم وخيالكم وادراككم وعقلكم وبصيرتكم ، وما به يقوى وعيكم بذاتكم وبالكون من حولكم . ثم انكم فيما بعد هذه الفترة ، ستسهرون على تكوين انفسكم بانفسكم ، وعلى نحت شخصيتكم ، وضبط نظرتكم للوجود ، بارادة ذاتية حرة لا تبعية فيها ولا اعتماد على تجربة الغير او هداية الغير ، فاذا انتم ساعون الى تجديد افكاركم ومشاعركم وتصوركم لكل المشاكل وكل المسؤوليات ، جاهدون الى تطوير نشاطاتكم ومساعيكم في الحياة ، ولا تزالون طول عمركم على هذا ، ما دامت لكم حيوية وشباب حياة .

أبو هريرة ومراحل مسيرته الوجودية

أ ـ الحس

الحظوا هذا ، ثم خذوا كتاب « حدث ابو هريرة قال ... » وانظروا اين ابتدا واين انتهى . انظروا كيف ان الحديث الاول كان « حديث البعث الاول » في معنى الولادة ، والحديث الاخير كان بعنوان « البعث الآخر » الذي هو ايضا في معنى الولادة ، لكن الولادة في عالم آخر وبنوع من الكيان آخر . الحديث الاول خلاصته ما هي ؟ هذا شخص كان يحيا حياة ميتة جامدة ، لا يشعر بشيء من روعة الوجود ، ثم هو يكتشف بواسطة صديق له وجها لم يكن يعرفه من الحياة هو وجه الجمال ، يكتشفه في صورة الجمال الناشىء . فرمز الفجر في الحديث الاول ، اشارة الى ابتداء الحياة او ابتداء المغامرة الوجودية الواعية . وهذه المغامرة يكتشفها هو كما تكتشفونها انتم في عهد الشباب وفي فجر الحياة . يكتشفها كما تكتشفونها في روعة جمالها وفي اندفاعها المظفر ، في هاته القوة المتدفقة على انغام التغني بجمال الحياة وبمتعة الحياة وبسعادة الوجود ، في أطهر مظاهرها وابعدها عن دنس الحس او البهيمية . من هنا تنطلق مغامرة ابي هريرة . ثم هو بعد ذلك يتطور باطوار الحياة ، فيمر اولا بطور التهاب الشهوة الجسدية ، الذي تعلمون انه يمر به جميع البشر قبل ان يتجاوزوه الى غيره من مراحل الكيان البشري والتجربة الوجودية ، كمزحلة تجربة الحب او التجربة الاجتماعية مثلا . والمتعة الحسية او

الجسدية هي من عناصر الكيان الانساني ، تلك حقيقة لا تنكر . ولعلكم درستم من بين الشعراء والكتاب من العرب ومن غير العرب ، من يتغنى بجمال الحس البشري ، ويتغنى بجمال المتعة الحسية في الحياة ، مثل بعض المذاهب الفلسفية التي لا تفرق في المتعة الفنية الجمالية بين الاستمتاع الحسي المجرد والمتعة الاحساسية الشعورية ، فيقولون ان المتعة الجمالية او اللذة الفنية ليست مجرد معنى ، بل هي لذة في المعنى الجسدي كما انها متعة في معنى الروح والفكر .

ب ـ الحب

قلت ، هناك حينئذ في حياة الانسان مرحلة ، هي مرحلة سعادته الملائى بالجسد وما اليه من قوى جسدية مسعورة او حسية متدفقة ، لكن دون ان تنحصر فيها ، بل تبقى وثيقة الارتباط بمقوم آخر من مقومات الكيان البشري . وخصت الذات البشرية في ان لها ابعادا مختلفة : لها ابعادها الجسدية او الحسية ، ولها ابعادها الروحية او المعنوية . وبالتالي فسعادة البشر لها بعدها الحسي والمادي ، ولها ايضا بعدها الروحي . مثال ذلك السعادة التي يعرفها الشباب في عنفوان اقبال الحياة سعادة الحب والعشق ، التي يشترك فيها اتحادا الروح والجسد . وهل تتصورون انسانا حيا يكون روحا بلا جسد او جسدا بلا روح ؟ وكذلك شان الحب ، حب العاشقين ، الذي لا يكون ـ ايا ما بلغ من التجريد في عالم الطهر العذري الخالص ـ بل لا يستطيع ان يكون ، الا حسا واحساسا معا ، وميلا جنسيا وشغفا قلبيا في آن واحد ، اي عاصفة هوجاء من العواطف تهز كامل الجسد والروح نحو سعادة الوصال هزا لا يغالب .

الحب البشري هو هذا . ليس هناك حب هو معنى مجرد او عاطفة مطلقة ، وليس هناك حب اصيل يكون تعلقا جسديا بحتا . بل الحب الذي يرفعه صاحبه الى شرف المنزلة الانسانية ، هو الذي يكون حبا يتحد فيه اتقاد الجسد وتاجج المتعة باتقاد الروح

وباسمى معاني الجمال الروحي ، وفي ذلك فقط ما به يخرج الحب والعشق عند الانسان عن طور الغريزة الحيوانية او الشهوة البهيمية الى طور الانسانية .

بل انظروا كيف كان الحب ـ بحسب ما سن الله من سنن الطبيعة ـ سببا من اسباب دوام الجنس البشري وتناسل الاجيال جيلا بعد جيل منذ بدء الوجود ، وكيف انه على هذا الوجه ظاهرة لتلك العاطفة الغريزية المركزة في البشر كما هي مركزة في الحيوانات وكما هي مركزة بصورة اخرى في جميع الكائنات ، اعني غريزة المحافظة على الحياة . ولكن الذي يمتاز به الانسان هو أنه لا يقف عند مجرد الغريزة ، بل يجعل من ذلك عنصرا من عناصر الكيان الانساني ، ومكسبا من مكاسب الفكر والاحساس البشري ، ومعنى ساميا لا يزال يتغنى به الشعراء من قديم الزمان الى يومنا هذا : اعني عاطفة الحب والعشق الذي هو الطف جوهر في الحياة الباطنة ، تلك العاطفة التي قضت سنن الحياة ان تختلج بها قلوب الشباب مثلكم وتلتهب بها عواطفهم في مثل عمركم هذا ، وهي التي يصفها ويشرحها لكم الشعراء والكتاب بالغزل والرواية والقصة ، فيدربونكم عليها تدريبا ويعلمونكم طريقة السعادة بها ، حتى اذا شعرتم بما يشعر به كل البشر في حالة الحب السعيد ، وجدتم انفسكم سعداء لا كما يسعد الحيوان بمجرد اشباع الغريزة ، بل قبل كل شيء بما تجدونه في اعماق الروح والقلب والعاطفة والخيال والفكر من مشاعر ، ولو اقترنت بمتعة الاحساس في الجسد .

ذلك ما اخالكم عشتموه او بداتم تعيشونه في هذه الفترة من حياتكم ، وذلك هو الذي تحوم حوله ستة من الاحاديث الاولى من « حدث ابو هريرة قال ... » ، تترنم كلها بانشودة حب ابي هريرة وريحانة ، محاولة ابرازه وصفا حيا كفترة من اهم واروع فترات النماء الوجودي والانفجار الحيوي واكتمال الآمال والآلام في بهجة الشباب والحب . ولكنه ياتي بعد ذلك طور آخر في المسيرة الوجودية

فيه تجاوز وتعميق ، تعكس صورته عند ابي هريرة بعض تلك الاحاديث ، حين نراه يحدث ريحانة بانه سينصرف عنها ويرتحل ، وانه بدأ يشعر بشيء من الملل ومن الكلل ، لان من شان الحس ان يفضي الى ما يصرف النفس عنه ويحملها على تجاوزه ، لانه اصبح غير كاف وحده لتحقيق السعادة .

ج ــ الحيرة في الناس

ذلك ان السعادة الحاصلة بالعشق والوصال لا تكفي مهما امتلأت بها ارجاء الكيان ومهما كان بعدها الروحي الباطن ، لان الانسان ــ اذا انحصر كيانه في حدود الفردية ــ لا بد ان ياتي عليه وقت من الاوقات يشعر فيه من اجل ذلك بنوع من العجز او البتر ، ويجد كمثل العاهة أو القصر في ذاته ، فاذا هو يتطلع الى كيان اوسع وابعد واعلى ، ويروم اشاعة روحه وحياته ووجوده الى كثرة البشر وعددهم حوله ، ليشبع بذلك نفسه ويشعها اشعاعا ، طلبا للاتساع عن طريق الاتصال بالغير ، بالعالم ، بالطبيعة ، بالكون .

لعل البعض منكم درسوا فيما درسوا من ادب الغرب ادب المدرسة الرومنطيقية التي اشتهر شعراؤها بالتغني بالطبيعة . وقبل هؤلاء كان من شعرائنا العرب من تغنوا بالطبيعة كابن الرومي والكثير من شعراء الاندلس . وكل هؤلاء حاولوا ان يكسبوا أنفسهم من السعة ومن الابعاد ما يطلق عقالها ويجعلها تنتشر في الطبيعة وفي الكون حولها . كذلك شان الانسان الذي يشعر احيانا بأنه ، ان لم يخرج عن حدود الكيان الفردي والسعادة الفردية والتجربة الفردية الى الاشتراك مع غيره من البشر في حياة جماعية ، بقي كالمحصور في سجن ضيق ، ووجد نفسه كابي العلاء المعري ازاء عماه في محبس مظلم من ضيق الكيان وانحصار الذات والشخصية وقصور جذورها وعروضها عن الاتصال بغيرها من الانفس . اما الانسان الذي يهتدي الى الخروج من ذلك المحبس فانه يصبح يحيا لا بقلبه وجوارحه وخياله

وفكره هو فقط ، بل بكل ذلك مضافا اليه احساس وعواطف وأفكار جميع الذين حوله ، ويصبح شعوره بالكيان قبسا من شعور جماعي فائضا عن حدود ذاته الفردية .

وتلك هي التجربة التي عاشها ابو هريرة ، عندما مارس ابعاده الاجتماعية وحاول ان يهب روحه ويفتحها لغيره ، وان يكون حاضرا بالكيان الجماعي في من عاش معهم ، عندما حركهم ليحسنوا حالهم ويبدلوا من منزلتهم ويغيروا من مصيرهم . وليس ادل على ذلك من قول ابي هريرة في « حديث الحاجة » : « اقول : وما احوجك يا ابا هريرة الى غيرك ؟ فيقول : لا ادري ، او لعله ضيق محبس النفس الفرد » . او قوله في « حديث العدد » : « انه يا كهلان اذا كره المرء الحصر والقصر طلب كثرة اليم واشتقاق العدد ... » .

ولكن هذه التجربة الاجتماعية تخفق ، وتفضي به هي الاخرى الى مرحلة جديدة من مسيرته الوجودية ، حين يخاطب الناس في « حديث الجماعة والوحشة » بقوله : « والله لقد عاشرت واستانست اشباهكم كثيرا ، وحسبت ان في العشرة سعة النفس واليمن والنعمة . فما كان منه الخيبة ووحشة الوحدة . وارتدت الي نفسي ضيقة حسيرة وضل عني كياني » . لقد عاش اذن ابو هريرة التجربة الاجتماعية في حال محبة للناس ورحمة لهم وبعث لهممهم واصلاح لحالهم وسعي لاسعادهم وتحسين لاخلاقهم وتطهير لطواياهم . ولكنه لا يلقي منهم الا التخاذل والبغضاء والنهم فيقول : « انه لا يشبع من روحه الجوع » او يخاطبهم بقوله : « الا انكم فؤوس الخراب . افلا تستحون وترعوون ؟ » او بقوله : « كذا انتم شر ووهن » . وتكون خلاصة تجربته مع الجماعة قوله لكهلان : « ارحمهم يا كهلان ولا تؤمن بهم » . ولا يلبث بعد ذلك ان يتجاوز هذه التجربة لانها بدورها لم تكف لاشباع روحه ولم توقفه عند حد فيه الرضى والسكينة وبلوغ الملأ والطمانينة .

د ـ الحيرة في الله :

معنى ذلك ان أبا هريرة اكتشف آفاقا أخرى من مسؤولية الكيان البشري ، فانتقل الى مرحلة اخرى من مسيرته الوجودية : مرحلة فلسفية ان شئتم ، فيها شيء من التشاؤم ومـن مر التساؤل . وذلك حين اغمت نفسه واصابها ما اصابها من الالم والحيرة ، فانصرف يتساءل عن سر الوجود ومعنى الكيان ، وعن معنى ما عاشه من حياته ؛ مستخلصا من تجاربه السابقة ما افضت اليه من جوع يخلف جوعا آخر وسؤال يولد سؤالا . حتى ليشرف على الياس القاتل ، فيقول وقد اشفق على نفسه من الجمود : « ويل للذين يموتون ثم لا ينبعثون » . في تلك الفترة من الياس والحيرة والتردد يجد ابو هريرة شيئا من نضوب النفس ، ويخاف على نفسه ان تتوقف مسيرته الوجودية ويتعطل كيانه الانساني او يجف وييبس . وفي هذا الموقف تنتابه ماساة من يخاطبه القرآن بالآية الكريمة . « فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير » . وهي مأساة من يحيا في اعماق كيانه ، لاول وآخر مرة في حياته ، طور « الفاقة الكبرى » التي لا يسدها الا ايمان يملأ القلب ، وطور « العمى » الذي لا ينجي منه الا نور يقذفه الله في افئدة من شاء بهم رحمة . وتلك في الجملة هي قصة تيه ابي هريرة دهرا طويلا في متاهات المشاكل الماورائية التي سار على دروبها المتشعبة في آلام وعشق وعذاب في صحبة « ظلمة » (راجعوا في ذلك كله « حديث الغيبة تطلب فلا تدرك ») .

هـ ـ العشق والفناء :

ولقد كان ابو هريرة في محاولته تلك مؤمنا بان « سعادة النفس وكمالها ان تنتقش بحقائق الامور الالهية وتتحد بها حتى كانها هي » كما يقول الغزالي . ولكنه لم يفز بشيء من ذلك ، فاذا على لسانه ، كما يقول ، « لعنة ذي المسغبة يطعم الزقوم » . وينطلق مرة اخرى الى مرحلة اخرى من مسيرته نحو الهول والموت . وذلك

ما يفضي بتجربته ومغامرته الوجودية الى آخر مرحلة من حياته ، حتى يسمو الى نوع من الكيان كانه وسط بين الحياة وحياة اخرى ، الا وهو الكيان الصوفي الذي يشرف به على منتهى حدود الحياة البشرية على وجه الارض من ناحية ، ويتسامى به الى نوع من الاتحاد بالعالم العلوي من جهة ثانية . اي الى ذلك « الاتحاد » الذي توصل اليه من لعلكم سمعتم على الاقل باسمائهم من اهل التصوف في الاسلام ، كالغزالي الذي تعرفونه بدون شك ، وكالحلاج مثلا الذي عساكم تعلمون انه عذب وقتل او صلب ، لانه كان يقول انه اتحد بالله واتصل بالذات الربانية ولم يبق بينه وبين الله فاصل ، وانه بلغ من السمو الروحاني ما يجعله في غنى عن ان يصلي او يصوم ، لان تلك الشعائر الدينية انما هي سبل التقرب الى العالم الروحاني العلوي التي يتبعها الذين لا يستطيعون ان ترتفع بهم انفسهم الى ما فوق او ما وراء افق الانسانية .

والذي يقابل ذاك الافق الاقصى من الكيان الانساني هو الافق الادنى الذي هو البهيمية وهو الحيوانية . وبين هذه الحيوانية وتلك الروحاينة ، بين هذين الطرفين او هذين الأفقين اللذين يحدان ابعاد كيان الانسان ، يتردد الانسان متارجحا بين منازل مختلفة : فمن الناس من لا يختلف كثيرا عن الحيوان ، ومنهم من يبقى طول حياته يتخبط في البهيمية احساسا وشعورا وتصورا وحياة ومسؤولية ، ومنهم من يرتفع عن ذلك درجة أو درجات ، ومنهم من قد يصل في الارتفاع الى ان يشرف على أفق عالم الملائكة أو عالم الآلهة .

هذا بصفة مختصرة ما يشير اليه كتاب « حدث ابو هريرة قال » من قضايا ، لكن لا في شكل بسطات ومقالات فلسفية بل في شكل قصة انسان عاش حياته واضطلع بتجربته الوجودية وتقلب بين اطوار مغامرته الانسانية من اولها الى آخرها ، بما فيها من نور وظلمات ، وحيرة واطمئنان ، وبؤس ونعيم ، وشقاء وسعادة ، وحقارة وعظمة .

وهنا اريد ان اتوقف مرة اخرى عند اخص خصائص الادب في نظري الا وهي ان الادب هو عند الاديب تجربة وجودية بالنسبة للكاتب نفسه ، ثم هو تجربة يفرزها الكاتب ، بعد ان يعيشها ، افرازا من نفسه ومن صميم قلبه ، يخرجها من ذاته ويطرحها بين الناس ، لكي يتخذوها فيما تصلح لهم ، ولكي تساعدهم في كل حال على ان يتدربوا على الكيان كما قلت . وذلك هو الادب الذي هو الخالد ، والذي هو الباقي ، والذي لا يختلف من حضارة الى حضارة ولا من ادب الى ادب ، سواء في ذلك ادب اليونان والادب العربي والادب الهندي والادب الغربي . هو الادب الذي تركه لنا النوابغ من البشر الذين اضطلعوا بمغامرة الكيان البشري وعاشوا الوجود الانساني على اجمل وجه واكمله واسماه ، ولا يزالون يهدون الناس جيلا بعد جيل الى اجمل وأكمل واسمى ما ينبغي ان يطلبوه لذواتهم من تقويم ، حتى يستحقوا منزلة خلافة الله على الارض .

مجلة الحياة الثقافية ·
الاعداد 5 و 6 و 7 سنة 1976
وتأصيلا لكيان ص 68ـ75

* * *

الملاحق

ملحق عدد 1

المسعدي يفوز بجائزة الدولة التقديرية في الآداب والعلوم

تحت سامي اشراف السيد محمد مزالي ، الوزير الاول ، نظمت وزارة الاعلام والشؤون الثقافية يوم 16 سبتمبر 1980 حفل تكريم للاستاذ محمود المسعدي بمتحف الفن بالبلفيدير وقد اقامت الوزارة بالتعاون مع دار الكتب الوطنية معرضا وثائقيا ضم مؤلفات المسعدي وما كتب حولها ومختارات من مواقفه الفكرية وآرائه في الفن والادب ونماذج من الصور التذكارية المتعلقة بنشاطه النقابي والسياسي والفكري . وفي ما يلي كلمةالاستاذ فؤاذ المبزع وزير الاعلام والشؤون الثقافيةفي حفل تكريم الاستاذ محمود المسعدي :

انه لمن دواعي الغبطة والسرور ان يلتئم هذا الجمع الكريم من رجال السياسة والفكر والادب والفن لنحتفي باديبنا الكبير الاستاذ محمود المسعدي ونسدي له ما هو جدير به من التكريم والعرفان ، وننوه بما بذله من جهود موفقة ، وما تحقق له من منزلة متميزة في حياتنا الفكرية على المستوى التونسي والعربي والانساني .

ولقد تضاعفت سعادتنا اذ شرف سيادة الوزير الاول الاستاذ محمذ مزالي هذا الحفل بحضوره وهو رجل الفكر الذي قدم للادب

التونسي خدمات جليلة والمسؤول السياسي المؤمن بما للثقافة من دور اساسي في بناء نهضتنا الشاملة .

وانها لسنة حميدة ان تحرص تونس الوفية لرجالاتها ، المتطلعة الى آفاق فسيحة من التطور والنمو ، المؤمنة بدور الفكر ومنزلته الاساسية في تحقيق مطامحها المشروعة في التقدم والازدهار على ان تكرم رجالاتها ومفكريها ، وتعبر عن تقديرها لجهودهم وما تاتى لعبقرياتهم من وجوه الابداع والخلق .

ولقد حرص المجاهد الاكبر الرئيس الحبيب بورقيبة على ان يكون هذا التكريم سنة متواصلة فانشئت منذ سنة 1968 جائزة تقديرية تحمل اسمه هي الجائزة التي تفضل باسنادها بنفسه اخيرا إلى اديبنا الكبير الاستاذ محمود المسعدي وقلده بالمناسبة الوشاح الاكبر من الوسام الثقافي اعترافا بجهوده الدائبة في خدمة الثقافة والفكر وتقديرا لعبقريته الخالدة في مجال الابداع .

سيداتي ، سادتي ، ليس هذا هو المجال المناسب للتحليل المعمق لادب المسعدي ودراسة ما ينطوي عليه من وجوه العبقرية والابداع . فقد كتبت فيه مؤلفات كاملة وتناوله بالدراسة والتحليل كتاب بارزون ، واتخذت مؤلفاته مادة خصبة ثرية للدراسات الادبية واللغوية والفكرية بجامعتنا وبسائر مؤسساتنا التربوية ، ولم يزل ادب المسعدي مجالا ثريا لاهتمامات الباحثين من اجيالنا الصاعدة في الجامعات والمؤسسات العلمية وخارجها ، وسيظل على الدهر ادبا كبيرا وعطاء متواصلا وايحاءات من روائع الابداع معينها لا ينضب ،بهر عمالقة من نقادنا المعاصرين من امثال طه حسين بلغة صاحب « السد » وما تاتي له من تصرف فريد في العربية وصيغها فقال عنه :

« .. اما كاتبنا فقد اذعنت له لغته اذعانا واستجابت له في غير مقاومة ولا عناد واخشى ان تكون قد استجابت له اكثر مما ينبغي فاطمعته في نفسها واغرته احيانا بان يشق عليها ويرهقها من امرها عسرا .. » .

وتبين عميد الادب العربي من عمق الفكرة وروعة الفن في ادب المسعدي ما حمله على الاقرار بان اديبنا « يبدا بانشاء بيئة شعرية خالصة لا تكاد تقبل عليها حتى ترى نفسك في عالم من الخيال غريب لا عهد لنا بمثله في الادب العربي الا احيانا قليلة ... » ويقول عن السد : « وقد تستطيع ان تقول ان « السد » قصة فلسفية كاعمق وادق ما تكون الفلسفة ، وتستطيع كذلك ان تقول انها قصة شعرية كاروع وابدع ما يكون الشعر .. » (1) .

وعني نقاد آخرون بارزون بتحليل المضمون الفكري لادب المسعدي وما تحقق فيه من ايمان بالفعل والانسان يشق طريقه وينحت مصيره باستمرار ، فقال الاستاذ الشاذلي القليبي : « ان عالم المسعدي ليس بعالم استسلام ، بل هو عالم ثورةوطلب ، ومحاولة وعلاج ، ولئن انتهت ثورة غيلان بالفشل والهلاك فقد حاول وصارع . والكفاح فضل الانسان وشرفه الاسنى » .. (2) ومهما تختلف الاراء وتتباين مجالات الاهتمام في ادب المسعدي فان اديبنا الكبير تظل له مكانته المتميزة بين كبار الادباء العرب المعاصرين ، وتظل له مدرسته الفريدة في الكتابة ويظل له تصوره الخاص للادب ، واختياره الصعب الخلاق اذ « رفض ان ينقطع عن اصوله الثقافية ليغترب في صياغات الغير وأصر ، في عناد شديد ، وكان الوحيد ، الا يتقدم في العصر الا مستمرا مع ذاتيته الحضارية .. » (3) .

والواقع ان لشخصية الاستاذ المسعدي ومسيرته النضالية جوانب اخرى ثرية لا يجوز ان نغفل عن الاشارة اليها في هذا المقام ، فالمسعدي الكاتب المبدع الخلاق هو نفسه محمود

---

1 ـ جريدة الجمهورية 27 فيفري 1957 ..

2 ـ الشاذلي القليبي : مقدمة الطبعة الاولى للسد ـ نيل الطبعة الثانية الدار التونسية للنشر ـ « 1974 ـ ص 206 ـ 207 .

3 ـ توفيق بكار : مقدمة حدث ابو هريرة قال .. » دار الجنوب للنشر تونس 1979 ـ ص 39 .

المسعدي الاستاذ الشاب بالمعهد الصادقي وبمعهد الدراسات العليا عندما كان يصرف جهده لتربية الاجيال وبذر القيم السامية في نفوس شبابنا وهو نفسه المناضل الصامد في سبيل استقلال بلاده واستعادة كيانها ، يكافح في صفوف الحزب رفيقا من رفاق المجاهد الاكبر ويتحمل المسؤوليات النقابية الجسيمة في الظروف الصعبة ، ويصمد ، ويثبت ويلقى بسبب نضاله ضروبا من الاضطهاد والابعاد من الاستعمار الجاثم على بلاده . وهو نفسه المسعدي الذي يشرف على مجلة المباحث ويضطلع بمسيرتها مع نخبة من رفاقه عاملين على تأصيل الكيان ، وتاكيد الوجود الحضاري لامتنا ، مساهمين بصفة مشرفة ، في تحقيق سند ايديولوجي وفكري متين لحركة التحرر الوطني في بلادنا .

ثم هو المسعدي الذي يحظى بثقة المجاهد الاكبر فينهض بمسؤوليات جسام ويضطلع على الوجه الاكمل ، بمهام كبيرة في بناء تونس الفتية ، بعد استقلالها يخطط لمسيرتها التربوية الموفقة خلال سنوات طويلة ثم يضطلع باعباء اخرى متعددة في مسيرتها السياسية والثقافية ويذود عن مبادئها في المحافل الدولية . وكان في كل حال عند حسن ظن المجاهد الاكبر ومحل اعجاب الجميع وتقديرهم .

كل هذه المراحل من البذل والعطاء السخي في حياة اديبنا الكبير متماسكة ، متكاملة ، فلقد استطاع وهو وزير للتربية القومية خلال ما لا يقل عن عشر سنوات ان يجسد ما ناضل في سبيله من قيم سامية وغايات وطنية نبيلة على المستوى التربوي والاجتماعي فحقق اهم اهدافنا الوطنية في مجال التربية والتعليم وكسبنا بذلك اشواطا متقدمة من رهاننا على الانسان هدفا ووسيلة لمسيرتنا الانمائية وحققنا انتصارات في هذا المجال قل ان تحققت في بلد نام رغم ما كان يواجهنا من تحديات وصعوبات موضوعية متشعبة ونقص فادح في الامكانيات .

سيداتي ، سادتي ،

ان مآثر الاستاذ المسعدي اجل واكثر من ان تنكر جميعا في هذه الكلمة الوجيزة ، فاسمحوا لي ان اهنئه بتقدير المجاهد الاكبر اذ قلده الوشاح الاكبر من الوسام الثقافي واسند اليه جائزة الرئيس بورقيبة التقديرية وان اشكركم جميعا على تفضلكم بحضور هذا الحفل الاخوي البهيج .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .



ملحق عدد 2

★ كلمة محمود المسعدي في حفل تكريمه وتساؤلات عن وظيفة الأدب

سيداتي ، سادتي ،

بكامل التاثر اتناول الكلمة بين ايديكم الكريمة ، فانه حقا لداع من دواعي الشرف والغبطة والاعتزاز ولكنه في نفس الوقت رهيب بل جد رهيب هذا الموقف الذي اقفه في هذا الحفل المشهود وامام هذا الملا العظيم من رجالات السلطان والفكر والادب والعلم . وكيف لا يكون موقفي رهيبا امام ما غمرتموني به جميعا من كريم الاحتفاء ـ حضورا ومدحا واطراء ـ حين اشعر بان لساني ـ ولو استعان بكل وسائل البلاغة والبيان ـ عاجز عن ايفاء فضلكم حق قدره من الشكر والامتنان كما سبق له ان عجز امام فخامة الرئيس المجاهد الاكبر الحبيب بورقيبة عن ايفاء حقه من الثناء والحمد على ما اولاني من شرف اسنى . على ان فيما قد يبدو لكم من تاثري العميق لخير دليل على ما يملا النفس من مشاعر العرفان بالجميل نحوكم وعواطف الخجل والتواضع امامكم . التواضع بل محاسبة النفس حتى لا يورثها المدح غرورا ولا التكريم زهوا .

على انه ليس من باب التواضع ولا محاسبة النفس شكلا بل من الحقيقة المركزة في قرارة الضمير اني لم اشعر قط امس ولا اشعر اليوم ان لي فضلا خاصا استحق من اجله فائق التكريم وسني الجزاء . وانما هو اني حرصت طول حياتي وفي كل ماتي وتصرفاتي على تمحيص الواجب الذي يجب علي ان اقيم عليه نشاطاتي ومساعي واعمالي ، وان اضفي به الكرامة والاصالة

على حياتي . وكما قلت في كلمة الشكر التي القيتها على مسامع المجاهد الاكبر يوم شرفني بتوسيمي ومجازاتي فهل هناك شيء هو اروح على الانسان او ادعى لشرف النفس وطمانينة الضمير من القيام بالواجب . اعني الواجب الخالص الجوهر الذي لا يؤمر به الانسان ولا يملى عليه من الخارج بل الذي يستنبطه صاحبه من صميم اعماقه ويفرزه من حي احشائه ويصوغ منه معدن حياته .

وعلى هذا الوجه وفي هذا المعنى ـ كما تفضلتم بالتذكير به في كلمتكم اللطيفة حضرة الاخ الكريم ـ كان اسهامي المتواضع في الحقل الوطني اولا كمناضل دستوري ومسؤول نقابي ، وفي الحقل التربوي ثانيا كاستاذ حرص على تعليم الشباب الشعور بكرامته وبشرف اصله وأصالة ثقافته وعزة وطنه وانسانية حضارته حتى يعيش حرا معتزا بذاتيته ثم في الحقل الثقافي والادبي ثالثا بما كتبت من مقالات وما جاهدت من جهاد في الدفاع عن الذاتية الثقافية القومية وما الفت من كتب حملتها خير ما محصته وآمنت به من مؤصلات الكيان ومركزات روح البطولة ومعنى المسؤولية في صلب مغامرة الوجود .

تلك هي الصيغ التي صغت على قدها حياتي الادبية والفكرية والسياسية والاجتماعية دون ان افرق لحظة واحدة بين الادب والفكر والخيال والعمل لانها جميعا عندي ظواهر مؤتلفة متلازمة من المسؤولية والوجودية .

واذ قد خص الاديب في شخصي المتواضع بعناية خاصة وحفاوة ممتازة فلتسمحوا لي ـ ايها السادة الفضلاء ـ بان اعرج بكم الى حد ما على بعض التساؤلات حول الادب والاديب ووظيفة هذا ومفهوم ذاك ، وهو الموضوع الواسع الارجاء الذي تعلمون جميعا اني حمت حوله وقلبت فيه التفكير على وجوهه منذ العهد الذي كتبت فيه سنة 1954 في مجلة « المباحث » : « الادب ماساة او لا يكون : ماساة الانسان يتردد بين الالوهية والحيوانية ، وتزف به في اودية الوجود عواصف الم العجز والشعور بالعجز : امام القضاء امام

الموت امام الحياة امام الغيب امام الالهة ، امام نفسه .. » ـ من ذلك العهد الى السنوات الاخيرة وما حررت فيها من مقالات ومحاضرات عالجت بها مفهوم الادب ومضمونه ورسالة الاديب ومسؤوليته محاولا في كل ذلك التوسع والتعمق في التحليل والتدقيق .

ومما استسمحكم في التذكير به في هذا الصدد أني في مؤتمر ادباء العرب بليبيا سنة 1977 كنت قلت فيما قلت ان الادب ينبغي له ان يكون المرآة الصادقة لجماع قصة الانسان وخلاصة مغامراته وتجربته للكيان وزبدة ما يستنبطه من اعمق اعماقه من اجوبة عن حيرته وتساؤلاته ، اي ان يكون رسالة الانسان الى الانسان ، بل قل جازما ان الادب سبيل الانسان الى انسانيته وان وظيفته الاساسية تمحيص المنزلة البشرية وتوضيح رسالة الانسان في الكون وتحليل معنى الحياة وما ينبغي ان تتصف به لتكون جديرة بان يحياها الانسان ويضطلع بها عن وعي واعتزاز .

وعلى هذا الوجه يصح ان ينعت الادب ـ كما كتبت في مقال نشر بجريدة الصباح سنة 1951 ـ بانه بلوى ذاتية لا يعرفها حق المعرفة الا الذين عرضوا انفسهم لكل بلية باطنة وكل معضلة دخيلة ودوت التجربة في افئدتهم لجميع اصداء الكون والكينونة والصيرورة والفساد ، فهم ينشئون الكيان والانسان انشاء . وجماع ذلك ان الانسان ـ دون سائر المخلوقات ـ كائن مسؤول لان الله قد وهبه امكانيات معينة هو حر في تحقيقها او عدم تحقيقها فهو على كل حال خالق لمصيره بيده خلقا حرا نابعا من قرارة الذات الحية وارادتها ، وتلك خاصية الذاتية الانسانية ، التي اشرت اليها بقولي في مقدمة حدث ابوهريرة قال : « وان كل كيان لجهد وكسب منحوت »

لكن هناك امر اريد ان اتساءل فيه بين ايديكم ـ ولا انسى اني كتبت « من اقدم القدم كان السؤال لزوم ما لا يلزم في كيان الانسان » وقلت في تقديم كتابي الاخير « تاصيلا لكيان » : « انه

مجموعة كتابات توالت وتباعدت في الزمن العديد وتقاطعت متصلة في امتداد سؤال واحد لا يزال ينشد جوابه : من انا ؟ وممن انا ؟ واين السبيل مني الي او مني اليك ؟ فمني الى الكون او الى ما وراء الباب الذي وراءه العدم » . اريد ان اتساءل بين ايديكم : اذا كان مما قد يسلم به ان الاداب في جوهرها من نفحات الانسانية في معناها الاعمق والاشمل والاقدم فهلا يكون من الزهو او من الخطا ان يدعي الادب انه معدن انسانية الانسان او الاداب انها تستحق ما نعتها به بعض فحول الحضارة من الامم حين سمتها « بالانسانيات » Les humanités اليست الحقيقة ان اقصى ما يمكن ان يطمع فيه الادب هو ان يصلح لتدريب الانسان الناشىء على ان يكون ولاعطائه على السنة عباقرة الشعراء والكتاب والمفكرين والفنانين صيغا ومثلا ونماذج قد يقتدي بها او يهتدي بهديها في مسيرته نحو تحقيق انسانيته واضطلاعه بمغامرته الوجودية ونحت كيانها الانساني ، ثم اليس الواقع الذي لا ينكر من ناحية اخرى ان مثل هذا التدريب ومثل هذه الفائدة التي يفيدها الادب في تكوين الانسان يحد من مفعولهما وصلاح اثرهما امران :

اولهما ان منطلق مأساة الانسان البطولية انه محكوم عليه حتما ان يبتدىء حياته من صفر وان ينطلق من الفطرة الساذجة خالي الوفاض ، من كل زاد موروث ليبني كيانه جهدا بالتدرب والسعي الدائب حتى يكتسب ويستنبط اقصى ما يمكنه مما كسبته الانسانية عصرا بعد عصر ، وحضارة بعد حضارة من مكاسب الثقافة وفتوحات العقل والشعور وطاقات العمل والخلق . وليس للانسان من سبيل لتحقيق منزلته الوجودية غير هذه الافرازات التي يبرزها من نفسه في خلجاتها الماسوية .

اما الامر الثاني الذي ينبغي ان يتجنبه الادب فهو ان يزاغ بطاقته التكوينية نحو وظيفة تعليمية فيخرجه ذلك عن طبعه الانشائي الخلاق الى دور التلقين والارشاد ويجعل منه على هذا

الوجه اداة ابطال او تعطيل للذات او عائقا عن أصالة الكيان) ويميل بهٔ الى شبه تكييف للذات بحسب نموذج او نمط من الكيان مقلد او ممسوخ بينما الادب الحق ينبغي له ان يكون خادم الحرية والبطولة في آفاق المغامرة الوجودية وداعيا لاستنباط الذات البشرية كجوهر فرد في كنف المسؤولية الحرة الخلاقة .

وان اخشى ما اخشاه على ادبي خاصة وكل ادب اصيل بصفة عامة ان يناله من سوء الفهم مثل هذا الصرف له عن ماهيته الانشائية الى الوظيفة التعليمية والفائدة التلقينية .

تلك هي - ايها السادة والسيدات - زوايا الرؤية العامة التي حاولت ان اضطلع على ضوئها بمسؤوليتي الوجودية الشاملة جامعا فيها بين الادب والثقافة والسياسة والحياة قولا وفعلا بصلة جذرية جدلية احمد الله تعالى على ان وقاها من آفة التنافر والنشاز ، راجيا ان لا يطلب طالب من ادبي تعليما ولا تلقينا وان لا يجد باحث فيه غير الدعوة الى خلق كيانه بيده في حرية ومسؤولية متمنيا في الآخر ان لا يكون لدى غيري الا صورة من وسائل التوليد للانسان وقصة صادقة لما تدربت به شخصيا على ان اكون .

واسمحوا لي في الختام ان اجدد التعبير عن شكري الجزيل لكم ، وثنائي الفائق عليكم لما حظيتموني به من فضل التكريم والاحتفاء والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .



ملحق عدد 3

حديث للمسعدي الى جريدة « الصباح »

نشرت جريدة « الصباح » يوم 15 جانفي 1981 في صفحة « جريدة الادباء » حديثا اجراه الأديب الناقد أبو زيان السعدي مع صاحب « حدث أبو هريرة قال .. » ، وننشر هذه المقابلة لما فيها من إفادات عن المسعدي وافكاره ومواقفه وهي يمكن ان تعد وثيقة عن الحياة الأدبية في تونس في عهد مؤلف « السد » .

* يعلل كثير من كتابنا ضعف الحركة الادبية التونسية المعاصرة بان جيل محمود المسعدي انفصل عن مساره الادبي والفكري الاول ، الى مسارات اخرى ، اجتماعية او سياسية فكيف ترون القضية ؟

ج ـ كلما القي على هذا السؤال ، اجد نفسي ميالا الى ان اقول : انا لا علم لي باسرار الحياة ، كالروح التي هي من امر ربي ، لماذا لم يظهر من المجموعة الانسانية المتعايشة في تراب تونس منها نشاط ادبي ممتاز ؟

هذا قد تطلب له اسباب وعلل كما انه تطلب للحركات الادبية الاخرى علل واسباب ترد اليها ، ولكني اعتقد ان الظروف الخارجية ليس لها الا تأثير ثانوي ، هي من باب ما يساعد ظهور الظاهرة ولكنه لا يفسر الاظهور النشاط ولا ظهور الفتور ، العوامل الخارجية في حياة الامم ، وعلى صعيد ما تفرزه حيوية تلك المجموعة من البشر وقريحتها ، ليس امرا حاسما او جوهريا ، لذلك اعتقد ان المسالة ليست من البساطة ان تفسر ، فقد يكون ان المجموعة البشرية التونسية ، قد تنصرف قواها الخلاقة او بعضها الى ميادين دون ميادين ولم لا تكون الظروف التاريخية التي

عاشتها البلاد بعد الاستقلال ، بما في ذلك موجة الآمال العارمة وحظوظ البطولة المتوفرة ، وجهت القرائح الى ميدان دون ميدان ، ميدان خلق كيان جديد لمجتمع تونسي كان التونسيون يحلمون به قبل الاستقلال واتيح لجيل المخضرمين ان يحلموا به ، وان يحملوه في انفسهم حمل الحامل للجنين ، فمن الطبيعي ان ينصرف هؤلاء الى ميادين اخرى ، لنحت هذا المجتمع الجديد وبعث الروح فيه ، هذه الروح التي كانوا قبل الاستقلال بواسطة الادب والثقافةيوحون بما يتمنون له من وجه وذاتية وشخصية ويحاولون ان يرسموا ملامح لذاتهم الشخصية في حين لم يكن زمام الامور بأيديهم ، فكأنهم يرسمون الامثلة المعمارية للبيت الذي يتمنون اشادته ثم تتاح لهم بالاستقلال فرصة بناء هذا الصرح او هذا الكيان واقامة هيكل هذا المجتمع الذي كانوا يتمنونه على غرار مثل المدينة الفاضلة ، قد يكون هذا استبد بالطاقات الخلاقة .

هذا لا يفسر انه لم توجد قرائح اخرى ، وان تشق له سبله الجديدة في ميادين الادب والفنون ، ولست اعتقد ان هذه السبل كلها قد انسدت ، وان فترة ما بعد الاستقلال هي فترة فتور او ضعف ، وانما هي فترة ادبية مختلفة عن الحركات السابقة ولعل اكبر فارق ان الفترة السابقة كانت مليئة بدفق ايمان المتحمسين للدفاع عن الكيان المهدد بالمسخ او التعطيل ، بينما الفترة الحاضرة تحمل على الدعة والاطمئنان لما قد يظن انها لا تنطوي عليه من تحديات .

وعلى كل فاني لا ادعي القدرة على اعطاء التحليل الصحيح التاريخي والثقافي والاجتماعي المضبوط للوضع الذي اشرت اليه بسؤالك لاني لست من المختصين في هذه التحليلات .

* القيت محاضرة بمؤتمر الادباء العرب الذي انعقد بطرابلس الغرب ، ذكرت فيها انك تفتقد في جل الآثار الادبية العربية المعاصرة النظرة الشاملة او الرؤيا الكلية التي يصدر عنها الكاتب في هذا الاثر او ذاك ؟

فكيف تعللون ذلك ، ونحن نعلم جميعا ان النهضة العربية في شتى مجالاتها مضى عليها اكثر من قرن على الاقل ؟

ـ مرد هذه المسألة ، هو الحالة المأسوية او المرحلة التي يمر بها كامل العالم العربي وتمر بها خاصة ثقافته منذ بدأ العالم العربي كله يعيش فترة المواجهة للحضارة العصرية ، عندما استيقظ من سباته ورقدته الطويلة التي دامت به طوال القرون الوسطى بغتة وفجأة في وقت هجمة نابوليون على مصر وما تبع ذلك من انتباه كامل الشرق الى قوة الحضارة الغربية ، وبدا يتساءل عن سر قوة هذه الحضارة ويتساءل عن اسباب ضعفه وانحطاطه ، ويبحث عن وسائل الخروج من هوة الحالة الى حالة المجاراة للحضارة الغربية ، ثم الالتحاق بركبها والاسهام في حركتها . طوال كل هذه الفترة الى الان لا يزال السؤال مطروحا بنصه : كيف نرتفع ثقافيا ؟ وحضاريا من منزلتنا الضعيفة الى منزلة تضاهي من حيث القوة ومن حيث القيمة الحضارة الغربية الغالبة ، كيف ندافع عن ذاتيتنا الثقافية ؟ وكيف نضمن لها البقاء والمناعة ؟ أباتباع من يتحدثون عن الاصالة وهم في الحقيقة وفي كثير من الاحيان لا يفهمون من هذه اللفظة الا معنى التشبث بالماضي والتعلق بامجاده ، بدون ان يتساءلوا : هل ان ما يتعلقون به ما يزال حيا ام هو من آثار ما زال وانقضى كالرسوم البالية او التحف الباقية في المتاحف ام هل ان في هذا الماضي عناصر لا تزال حية ، وما هي وكيف تميز عن الآثار الميتة ، وكيف تدمج في صميم الحياة الحاضرة الحية . هؤلاء مدعو الاصالة ويقابلهم دعاة المعاصرة او التعصير الذين يدعون الى اتخاذ انموذج ثقافة الغرب الصناعية والراسمالية والاشتراكية او الشيوعية مثالا يحتذى ويقد على قده وجه المجتمع العربي الجديد فهم دعاة التقليد وتعطيل الكيان الذاتي للانسان العربي والاسلامي بالباسه او باعطائه ـ رغما ـ ملامح ذات اجنبية وشخصية غربية ، ليقال انه يحتل منزلته المرموقة في صميم المعاصرة .

هاتان النزعتان تفضيان الى نوعين من التعطيل الذاتي بالتحجر في الماضي الميت والتعطيل بالمسخ وتقمص شخصية الغير ، تلك هي المشكلة التي لا تزال تعيش ماساتها حركتنا ، او تعيشها على الاقل جل الآثار الادبية المعاصرة التي قلت انها لم تستطع – حتى الان – ابراز النظرة الشاملة او الرؤيا الكلية التي يترقب من كل ادب اصيل ان يقدمها كل ادب اصيل ان يقدمها للمتطلع من خلاله الى تصوره الخاص به ، لمغامرة الوجود الانساني ومغامرات المجتمعات الانسانية ، على صعيد الوجود الفردي او الوجود الجماعي فكريا واخلاقيا ووجدانيا وخياليا وسلوكا وفعلا .

ظاهرة جماعة « تحت السور » :

* انك اختلطت بجماعة « تحت السور » فعرفت الكثير من ألوان حياتهم المضطربة ، ولم تستطع الاستاتنية ان تحول بينك وبين ما يعالجونه في حياتهم اليومية وفي تجاربهم الادبية المختلفة ، فهل بالامكان ان توضح لنا جوانب من اسرارهم ، التي لم تكشف تماما الى حد الان ؟

ج – لقد عرفت جماعة « تحت السور » معرفة جيدة كانوا يمثلون ظاهرة بارزة في حياتنا الفكرية لانهم كانوا يتبوأون منزلة خاصة في المجتمع التونسي ، منزلة معروفة في التاريخ هي منزلة هامشية او بوهيمية ، منزلة يكون فيها سر الوحدة والالتئام ، يضمهم عنصر مشترك واحد ، بان المجتمع غير حامل لهم ما يحمله لغيرهم من عناصر المجتمع ، من الاطمئنان الضروري الذي لا تقوم بدونه حياة سوية ، كانوا خليطا متنوعا فيهم الشاعر والقصاص والصحافي والمغني والموسيقي : امثال علي الدوعاجي ومحمد العريبي ومحمود بورقيبة وعبد العزيز العروي ومن الاحياء الهادي العبيدي والهادي الجويني .

كان اتصالي بهم في عهد « المباحث » وقد حاولت ان افسح لهم

فرصة المشاركة في الحياة الادبية ، وفعلا نشرت للدوعاجي والعبيدي والعريبي وكانت لي ايضا بهم صلات اخرى ، فكنت احضر سهراتهم الحافلة بفنون الاحاديث الطيبة والاغاني الجميلة ، التي اقدر فيها ما بذلوه من جهود ممتازة لتخليصها من خزعبلات المغنين اليهود ، بل كنت في اوقات كثيرة ادعوهم الى منزلي واتداول معهم شتى الاحاديث ، فقد كان المجتمع يقسو عليهم وينكرهم ويعتبرهم من البدع الجديدة التي ينبغي ان تحارب واستطيع الآن ان أقول ان علي الدوعاجي قتله مجتمعه والذين يقراون اشعاره يجدون فيها ماساته التي حملها معه الى القبر ، انظر الى قصيدة « فنان الغلبة » فاني لا اعرف لها مثيلا في الادب الفصيح او غيره ، لانطباقها على كل اوضاع الماساة .

ثم صمت الاستاذ المسعدي قليلا ، واخذ يقرأ شيئا من اشعار الدوعاجي ، كانت قراءته معبرة ومؤثرة الى ابعد حد ، قرا ابياتا من « فنان الغلبة » ، ثم قرا اغلب قصيدة « الشاعر والناس » ثم واصل حديثه :

اما محمد العريبي فقد كان نموذجا للفنان البوهيمي المتمرد واعتقد ان المرأة هي التي قتلته .

* اذا كانت جماعة « تحت السور » عاشت حياتها بمثل تلك القسوة التي رويتها لنا فكيف كان الامر بالنسبة لك وانت تخطو خطواتك الادبية الاولى في تونس ؟

— في هذا المعنى لابد ان انكر امرا ، مازالت نفسي تهتزله كلما خطر بالبال فقد دعيت الى المشاركة في حفل ذكرى ابي العلاء المعري بعد الف عام . كان الحفل منعقدا بالمسرح البلدي بالعاصمة وحضره المثقفون والمسؤولون الرسميون في ذلك الوقت ، وقد اعددت كلمة بعنوان « ابو العلاء فيما بينك وبين نفسك » ويبدو ان المشرفين على الحفل عرفوا مضمون كلمتي وانهم لم يرتاحوا لما جاء فيها ، لذلك قدموا وأخروا حتى تكون كلمتي آخر المطاف .

وحينما علوت المنبر واخذت اعدد مواقف ابي العلاء من قضايا

عصره ، وكيف كان يواجهها بكل شجاعة وحسم ، لاحظت ان عددا من الرؤوس تتقارب وتتهامس ثم ان بعضها ارتفع بما يشبه الاحتجاج والاعتراض ولم اعبا بذلك فمضيت القي كلمتي ولكن الاصوات اخذت تشتد وبعض الاصابع بدات ترتفع ومع ذلك واصلت الكلام ، وتطور الموقف فقد وجدت صوتي معلقا لا يصل الى الاسماع لان المشرفين على الحفل امروا باطفاء حرارة المصدح ، وهكذا انتصر التقليد على التجديد والجبن على الشجاعة .

اكثر من هذا فان كلمتي لم تدرج بمجلة الثريا كما ادرجت باقي كلمات الحفل الاخرى ولكن صديقي محمد العريبي ــ رحمه الله ــ نشرها بجريدة « الزهرة » .

البطولة تجاوز لا ينتهي :

* ازاء النهايات الفاجعة ، التي تنتهي اليها حياة الكثير من ابطال مؤلفاتكم ، يستنتج الكثير من الدارسين ان العنصر الحاسم في تلك النهايات هو ان الابطال « يطلبون ما لا يدرك » او انهم يحاولون ان يخرجوا عن طابعهم الانساني المحدود ، الى آفاق فيها شيء كثير او قليل من معنى النبوة او الالوهية ؟

فهل معنى هذا ان البطولة الحق في نظرك لا تكون الا ضمن هذه الحدود ؟

ج ــ المنزلة الانسانية في نظري مما ينبغي ان يقال فيها بانها منزلة المأساة ، بل يمكن ان يقال فيها ايضا ، بانها تحمل في اضعافها اكبر حدود البطولة وامكانية اسمى شرف ممكن ، هو شرف البطولة لان البطولة في الثورة ، او عدم الرضى بالمعطيات القائمة ، وهذا يمكن ان يلخص بالتجاوز المستمر ، اما معطى او مكتسبا واول درجات البطولة هو ان يثور الانسان على ما هو معطى وبعد ذلك درجات لا نهاية لها من البطولة ينتقل بها الانسان من حالة الى حالة ، فهو التجاوز المستمر الذي يكاد يجعل من الانسان كائنا ، لا يمكن ان يعرف بتعريف قار ، من حيث

المحتوى ومن حيث مضمون كيانه ، في اي وقت من اوقات وجوده فهو في تجاوز مستمر لا نهاية له ، تجاوز يسعى الى ان يدرك افقه الاعلى ، والافق ليس مكانا يدرك ، الافق هو ما ينتهي عنده البصر فاذا تقدم انكشف عن آخر . كذلك بطولة الانسان في مغامرته الوجودية ايا كانت الصورة سواء المغامرة الفكرية او الشعورية الوجدانية او الجمالية الفنية ، هذا بالنسبة للفرد يصح في حدود معينة وهو بالنسبة للانسانية يصح بصفة مطلقة لان الانسانية ما زالت تتجاوز منزلتها وطاقتها ومصنوعاتها تجاوزا لا ينتهي . تاريخ الانسانية والحضارات يشهد بذلك من عهد انسان العصر الحجري الى عهد الانسان المتجول في الفضاء .



فهرس النصوص المختارة

فهرس الملاحق

الفهرس العام

للمؤلف

* **رسالة المناعي الى احمد باي** : (تحقيق ودراسة) ، عن الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1977 .
* **قسمة وطرح** : مجموعة قصصية ، عن الدار العربية للكتاب ، 1977 .
* **ابحاث في الأدب والتاريخ** : عن دار عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع ، تونس ، 1979 .
* « **رهين المحبسمين ، أبو العلاء المعري** » : عن دار بوسلامة للنشر والشركة العربية للنشر والتوزيع ـ تونس ، 1981 .
* « **مظاهر من الاتصال الفكري والأدبي بالغرب** » سلسلة الموسوعة الصغيرة بغداد ، 1981 .
* « **ديوان عبد اللطيف الطوير القيرواني** » (جمع وتحقيق) ، عن الدار العربية للكتاب ، تونس ، 1981

تم طبع هذا الكتاب
بدار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع
15، شارع فرنسا تونس
الطبعة الثالثة في تونس
الايداع القانوني عدد 68
الثلاثة أشهر الرابعة 1987

٨٥ -

يحدّثك هذا الكتاب على :

إنّ رواية « حدث أبو هريرة قال.. ». بمثابة الرد على إدّعاءات تقول بأنّ لا قيمة حضاريّة للانسان العربي. فأبو هريرة الشّخصية العربيّة اللامعة، المتجذر في التاريخ الرّامز إلى قيم عربيّة اسلاميّة سامية لم يمت بل لا يزال حيّا بيننا، هو رمز وجودنا وتحقيق لذواتنا وبرهان على أنّ الحضارة العربيّة الاسلاميّة مازالت قائمة وصامدة أمام جميع التحديات.

« أكون أو لا أكون » تلك هي قضية هذا الكتاب الجوهريّة.

فالمسعدي - في هذا الكتاب - يفسر علة وجود الانسان العربي ويوضح غاية حياته : توق إلى المطلق وتحد لأخطار الحياة، وممارسة متواصلة لمغامرات الوجود وبحث مستمرّ عن الحقيقة.

- المؤلف -

الثمن :2,500 د. ت